كتب قيمة

٢٨

العرب

قبل كولمبس

رحلات عرب الأندلس وشمال أفريقية إلى جزر الأطلسي والأمريكتين

حصر للمعلومات والنتائج

المهندس

لطف الله قاري

دار القلم

دمشق

الدار الشامية

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كتب قيمة
(٢٧)

العرب قبل كولمبس

رحلات عرب الأندلس وشمال أفريقية إلى جزر الأطلسي والأمريكتين
حصر للمعلومات والنتائج

المهندس
لطف الله قاري

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

عُرف المحيط الأطلسي عند قدامى الجغرافيين بالبحر المحيط أو بحر الظلمات؛ وذلك لاعتقادهم بأنه ليس بعد شواطئه أرض مسكونة. وقد اشتهر بين الناس اليوم أن كولمبس هو الذي اكتشف العالم الجديد سنة ١٤٩٢م، ثم توالت اكتشافات بقية القارتين في السنوات التي تلت. ويعتبر الغربيون أن جزر المحيط الأطلسي مثل الكناري والأزور لم تكتشف إلا قبل كولمبس بفترة وجيزة.

ولكن التراث العربي الإسلامي في الجغرافية والتاريخ يشير إشارات مقتضبة إلى رحلات قام بها رواد مسلمون إلى جزر المحيط الأطلسي والكاريبي، ومحاولات للتوغل في بحر الظلمات انقطع خبر أهلها، حيث لم يعودوا إلى أرض الوطن. وتشير الدراسات الحديثة عن آثار وتقاليد وثقافة

الهنود الحمر بالأمريكتين إلى وجود صلة لبعضهم باللغة العربية والإسلام.

وكل هـذه الأخبـار التـي وردت فـي كتـب التـراث، والمكتشفات الحديثة عن قبائل الأمريكتين ترد متفرقة متناثرة هنا وهناك. ودور هذا البحث هو جمع كل المعلومات مرتبة متسلسلة، ومحاولة الخروج منها بنتائج ومسائل مطروحة للباحثين، ليمضوا قدماً في الكشف عن مزيد من المعلومات في هذا الموضوع.

وليس العرب المسلمون فقط هم الذين وصلوا إلى الأمريكتين قبل كولمبس، وإنما سبقت شعوب أخرى إلى استكشاف المحيط الأطلسي والوصول إلى القارتين عدة مرات. فقد عثر علماء الآثار على نقود قرطاجية في جزيرةٍ بـأقصى غرب جزر الأزور التي تبعد ١٣٠٠ كيلـو متـر عن شاطئ البرتغال[١]، كما عثروا على عملات قرطاجية أخرى

---

(١) LUNDE, PAUL. "pillars of Hercules, Sea of Darkness",ARAMCO WORLD, Vol.43no.3(May-June 1992).P.13.

في أركنسا وألاباما[1].

والقول نفسه ينطبق على قدماء المصريين، وعلى الكلتيين Celts الذين ازدهرت لغتهم وثقافتهم بغرب أوروبا ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد. كما أظهرت الكشوف الحديثة أن عرباً من ليبيا القديمة - التي كانت تتحدث لغة عربية تختلف قليلاً عن لغة قريش التي عمت بفضل القرآن الكريم - وصلوا إلى الأمريكتين[2]، وأن الفيكنج Viking قراصنة شمال أوروبا في القرون الوسطى وصلوا إلى منطقة البحيرات العظمى وجزيرة نيوفاوندلاند وگرينلاند وآيسلاند[3].

---

(١) TOTEN, NORMAN., "Carthaginan Coins found in Arkansas and Alabama", Occasional Papers of the Epigraphic Society (USA 1976). Vol.4.

(٢) فل (باري)، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ترجمة العكبازي والمحيشي، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٨، وهو ترجمة لكتاب:

Saga America, by: Barry Fell, publ. by: Times Books. New York, 1980.

(٣) MORTON, W.L. "History of Canada", Encyclopaedia Britannica =(EB), 1981, Vol.3 p.733, BEETON, A.M. "Great Lakes",EB.

فإذا كان أولئك القوم قد وصلوا إلى النصف الغربي أو العالم الجديد، فهل نستبعد أن يصل العرب المسلمون إليها، وهم كانوا أكثر تفوقاً علمياً بما أضافوا إلى السابقين من ابتكارات؟.

= 1981, vol.8, p.301,DAVIES, W.K.D. "Geography",EB,1981, vol.7pp.1037&1038.

أولاً: رحلات مسلمي الأندلس وأفريقية

١ ـ تحدَّث المسعودي عن المحيط الأطلسي مسمِّياً إياه بحر أقيانوس قائلاً: «وعلى الحد بين البحرين، أعني بحر الروم وبحر أقيانوس (يعني ملتقى البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي) المنارة النحاس والحجارة التي بناها هرقل الجبار. على أعلاها الكتابة والتماثيل، مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائي، لجميع الداخلين إلى ذلك البحر بحر الروم (هكذا بالأصل ولعل الصواب: الداخلين إلى بحر أقيانوس)[1]، إذ كان بحراً لا تجري فيه جارية، ولاعمارة فيه، ولاحيوان ناطق يسكنه، ولا يحاط بمقداره،

---

(١) وتسمى هذه النصب التي بناها هرقل بالإنكليزية (أعمدة هرقل Pillars of Hercules). ويطلق الاسم نفسه على مضيق جبل طارق الذي يذكر القدماء أن الأعمدة نصبت عليه.
انظر: DAVIES, W.K.D., ibid., p.1037

ولا تدرك غايته، ولا يعلم منتهاه، وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط. وقد قيل إن المنارة على غير هذا الزقاق (أي غير المضيق الذي يسمى جبل طارق حالياً)، بل في جزيرة من جزائر بحر أقيانوس المحيط وسواحله.

وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة، قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا، وأن منهم رجلاً من أهل الأندلس يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها، فجمع جماعة من أحداثها، وركب بهم في مراكب استعدها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة، ثم انثنى بغنائم واسعة. وخبره مشهور عند أهل الأندلس»[(١)].

---

(١) المسعودي، علي بن الحسين (ت: ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، نشرة يوسف داغر، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣م)، ١: ١٣٤، ١٣٥.

فنرى من هـذا النص أن أكثـر من رحلـة في أعماق الأطلسي وصل خبرها إلى المسعودي، وذكرها في كتابه الضخم المفقـود «أخبـار الزمـان». وإذا صح خبـر رحلـة (خشـخاش) فإنهـا تمت قبل عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م الـذي بـدأ فيه المسعودي تأليف كتاب «أخبار الزمان». يقول كراتشكوفسكي عن هذه الرحلة: «يمكن من الناحية الزمنية إرجاع هذه المغامرة إلى القرن التاسـع، أما النقطـة التي بلغوها فهي مجال للتخمين والافتراضات»(١).

أما لندي فيفترض أن خشخاشاً ورفاقه أبحروا غرباً داخل المحيط الأطلسي. وإذا صح هذا الافتراض فإن أقرب منطقـة يمكـن أن يعـودوا منهـا بغنـائـم واسعـة هـي جـزر الكاريبي(٢).

---

(١) كراتشكوفسكي، إغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، صدر بالروسية سنة ١٩٥٧ م، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧ م) ص ١٥٢.

(٢) LUNDE.p.1992, "Pillars of Hercules.....", ibid, .p.16

٢ ـ وقام نفر من شبان مدينة لشبونة (عاصمة البرتغال اليوم، وكانت مدينة أندلسية حتى سقوطها بيد العدو سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م إثر تفكك الدولة الموحدة بالأندلس) برحلة أخرى رواها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) الذي أتم تأليفه في شوال سنة ٥٤٨هـ (يناير ١١٥٤م) حيث قال:

«ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم. ولهم بمدينة لشبونة موضع بمقربة الحمة درب منسوب إليهم، يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد.

وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال، كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركباً حمالاً، وأدخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الرياح الشرقية، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف.

فردّوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا مع البحر في

ناحية الجنوب اثني عشر يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها. فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها، فوجدوا بها عين ماء جارية وشجرة تين بري عليها. فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها.

فأخذوا من جلودها، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً، إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث. فقصدوا إليها ليروا ما فيها. فما كان غير بعيد حتى أُحيط بهم في زوارق هناك، فأُخذوا وحُمِلوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر، فأُنزلوا بها. فرأوا فيها رجالاً شقراً زعراً، شعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب.

فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم وفيما جاؤوا وأين بلدهم. فأخبروه بكل خبرهم. فوعدهم

خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم، أُحضروا بين يدي الملك، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه. فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من الأخبار والعجائب، ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان: خَبّر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا في غير حاجة ولا فائدة تجدى.

ثم أمر الملك الترجمان أن يَعِدَ القوم خيراً، وأن يَحْسُنَ ظنهم بالملك، ففعل. ثم انصرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جري الريح الغربية، فعُمر بهم زورق، وعُصبت أعينهم، وجُري بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم: قدَّرنا أنه جُري بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جيء بنا إلى البر، فأُخرجنا وكُتِّفنا إلى خلف، وتُرِكنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس، ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحنا

بجملتنا، فأقبل القوم إلينا، فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلّونا من وثاقنا، وسألونا، فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا، فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: واأسفي! فسمي المكان إلى اليوم آسفي. وهو المرسى الذي في أقصى المغرب»(١).

وقد درس حسين مؤنس هذا الخبر، فاستخلص أن الرجال الثمانية اتجهوا غرباً ١١ يوماً، وسارت بهم الرياح في اتجاه الشمال الغربي. ثم تحولوا إلى الجنوب ـ أو الجنوب الغربي ـ مدة ١٢ يوماً، حتى وصلوا جزر الأزور The Azores. ثم قال: «وقد استبعدنا أن يكون وصولهم إلى جزر ماديرا، لأن هذه أقرب إلى ساحل أيبيريا من ذلك. ثم اتجهوا بعد ذلك جنوباً بشرق، حتى وصلوا الجزيرة الثانية التي

---

(١) الإدريسي، محمد بن محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (روما: المعهد الإيطالي للشرق الأقصى والأدنى، ١٩٧٠ ـ ١٩٨٤م)، ثم أعيد طبعه في (بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م)، ص ٥٤٨.

ذكروها. وقد غلب على ظننا أنها إحدى جزر الكناري؛ لأن الناس الشقر الزعر ذوي الشعور السبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب تنطبق أوصافهم على الجوانشي Guanche الذين كانوا يسكنون هذه الجزر قبل الغزو الإسباني، فيما عدا وصف النساء بالجمال العجيب؛ لأن هذه مسألة تقديرية. والغريب في كلامهم هي الغنم التي وجدوها في الجزيرة الأولى... ثم إن الغنم لم توجد في الأزور ولا في ماديرا قبل كشف البرتغاليين لها»(١).

ويفترض حسين مؤنس أن رحلة المغررين تمت حوالي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م.

ويرى كراتشكوفسكي أن رحلة المغررين مجرد أسطورة تشبه أسطورة الراهب برندان الذي تتفق قصته مع قصة المغررين في التفاصيل(٢). إلا أن عبد الحميد

---

(١) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٦م)، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٣.

العبادي يرى أن أسطورة برندان يزعم رواتها أنها حدثت في القرن السادس الميلادي، أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام. ولكن هذه الأسطورة لم تكتب إلا في القرن الخامس الهجري، ولهذا فهي قصة مأخوذة عن رحلة المغررين. ويرى العبادي كذلك أن معالم رحلة المغررين من الناحية العلمية صحيحة(١).

ويتفق عباس محمود العقاد مع القائلين بأن رحلة خشخاش والمغررين أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك، ولا سيما قول الرواة أن المغررين وجدوا في الجزيرة رجالاً شقراً زعراً شعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب. ثم يقول بعد ذلك: «ولو وصل أولئك المغررون إلى القارة الجديدة لرأوا هناك ما رآه

---

(١) مال الله، علي محسن: (رحلة المغرورين)، مجلة (المورد)، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، المجلد السابع، (١٩٧٨ م)، العدد الأول، ص ٨ ـ ١٠.
وهو ينقل عن مقال لعبد الحميد البغدادي، في مجلة (الثقافة)، القاهرة، العدد ١٣٦، السنة الثانية (١٩٤١ م)، ص ٦.

كولمبس، وعادوا بخبر أصح من هذه الأوصاف. وليس فيها جميعاً - أي قصص المغامرات المذكورة - ما يزيدنا على الظن بأن رواداً من العرب حاولوا استطلاع بحر الظلمات فلم يصلوا منه إلى نهاية. وهو ظن نستطيع أن نذهب إليه، بل نجزم به، بغير حاجة إلى تلك الأقاصيص»(١).

ويُرَد على كلام العقّاد بعدة ردود: فأولاً هل يجرؤ الإدريسي أن يصرح بأن درباً حدد موقعه في لشبونة سمي بدرب المغررين - إلى الأبد كما قال - دون أن يكون هذا الدرب موجوداً بالفعل؟ ألا يعني وجود هذا الدرب وشهرة مكانه أن للقصة سنداً من الواقع؟.

أما قوله بأن وصف الرجال غير وصف أهل القارة الجديدة، فكما أوضح حسين مؤنس أن الوصف ينطبق على شعب الجوانشي الذي استوطن جزر الكناري، لكنه انقرض بفعل الإبادة الجماعية من قبل المستعمر الإسباني. وذاب من

---

(١) العقاد، عباس محمود: (أثر العرب في الحضارة الأوروبية)، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٦ م)، ص ٥٣.

بقي منهم ضمن المستوطنين الجدد، فلم يعد لهم ولا للغتهم وجود[1]. يجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن العقاد كان يرد بطريق غير مباشر على أحمد زكي باشا الذي افترض أن رحلة المغررين تمت إلى أمريكا وليس إلى جزر الأطلسي[2]. ولهذا كان قوله بأن وصف البشر لا ينطبق على أهل القارة الجديدة.

أما عدم دقة المعلومات والتفاصيل عند خشخاش والمغررين مقارنة بكولمبس فسببه هو أن مؤرخي العصور السالفة اهتموا بتسجيل التفاصيل عن الحكام وأصحاب السلطة، وبدرجة أقل عن العلماء المشهورين. أما التركيز على إنجاز أفراد من عامة الشعب لم يحظوا بدعم مباشر من الحكام فلم يكن له نصيب من التوثيق الواضح. فقصة خشخاش والمغررين وصلت إلينا لاجتهادات شخصية من المسعودي والإدريسي.

---

(١) LUNDE, P., "Pillars of Hercules....", ibid., p.9

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤١٣.

ولم يكن أولئك المغامرون من الجغرافيين المتعلمين والرحالة المثقفين الذين وصلت إلينا نسخ يومياتهم التي دوّنوها. أما كولمبس الذي يقول العقّاد بأن معلوماته واضحة، فقد كان يسجل ملاحظاته كرحّالة يومياً. وكانت رحلته وما تبعها من تكريم وحفظ سجلات مدعومة من ملكي إسبانيا.

ولا يستبعد مصطفى الشهابي أن يكون الشاطئ الذي رسا فيه المغررون إحدى جزر أمريكا الجنوبية الواقعة شرق البرازيل، لأن المدة التي قطعوها تحملهم إلى تلك المنطقة حسب رأيه. ثم يقول: «ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هذه الجزيرة ثم توغلوا في القارة الجنوبية»(١).

إلا أننا لا نستطيع موافقته على رأيه هذا. فكما رأينا من تحليل حسين مؤنس فإن المسافة لا تتعدى جزر الأزور والكناري. ثم يجدر بنا ملاحظة أن المدة التي قطعوها بين

---

(١) الشهابي، مصطفى: الجغرافيون العرب، نشر ضمن سلسلة (اقرأ)، العدد ٢٣٠، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢ م)، ص ٣٤.

الجزيرة الأخيرة وميناء آسفي المغربي هي ثلاثة أيام حسب تقديرهم. فهل تقطع المسافة بين أمريكا الجنوبية وآسفي في هذه المدة؟.

ويرى شكيب أرسلان أن المغررين وصلوا في رحلتهم إلى جزر الأنتيل الواقعة بين الأمريكتين بين خطي عرض ١٠ ـ ٢٧ شمالاً و٦٢ ـ ٨٧ غرباً. وأنهم اتجهوا في المرحلة الأخيرة للرحلة إلى جزر الكناري. وهذا يفسر قطعهم للمسافة بين الجزيرة الأخيرة وآسفي في مدة ثلاثة أيام، ويطلب أرسلان من القارئ ألا يعبأ برواية الإدريسي عن عدد الأيام التي أمضوها في البحر في كل مرحلة، فالإدريسي كما قال ناقل عن الرواة، ولم يجتمع بالرواة أنفسهم(١).

ولكن ليس لدينا براهين وأدلة تثبت هذه الفرضيات.

٣ـ وفي عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب والأندلس (الذي حكم في الفترة

(١) أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، (القاهرة: دار البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م)، ثم مصوراً ببيروت حوالي ١٩٦٨م، ١/ ٩٤.

من ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م إلى ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م) سمع أمير البحر أحمد بن عمر المعروف بدقم الأوز الذي كان والياً على جملة من أسطول المرابطين أن جزيرة تقع قبالة ميناء آسفي بالمغرب، يظهر دخانها عند صفاء البحر. فعزم على الدخول إليها بما معه من المراكب. فأدركه قبل الدخول إليها الموت ولم يبلغ أمله في ذلك[١].

وهذا الخبر فيه نظر؛ لأن أقرب الجزر إلى آسفي ـ وهي جزر الكناري ـ تبعد عنها حوالي ٦٠٠ كيلو متر. ولكن نفس الجزر تبعد عن الساحل الجنوبي للمغرب (أي عند حدودها مع دولة الصحراء الحالية) بحوالي ١٠٠ كيلو متر. وبالتالي فقد يكون دخان الجزيرة شوهد في موقع أقرب من آسفي.

٤ ـ وروى الدمشقي شيخ الربوة (ت: ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ـ ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) أن: «بعض المراكب عصفت عليه الريح في بحر أقيانوس المحيط، فألقت به الرياح إلى جزيرة من جزر السعادات التي هي ست جزر، خمس منها

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٢٢٠.

مغمورة بالماء، والسادسة تسمى السعيدة لأن الفواكه الطيبة بأصنافها تنبت فيها دون غراسة. وقد وصلت المراكب إلى تلك الجزيرة، ونزل الركاب إليها وأقاموا بها، وعلموا حال الجزائر البواقي منها، وملأوا وسقهم مما فيها من الغرائب والرغائب.

وتعجب أهل الجزيرة منهم. وقالوا: لم نر أحداً من قبلكم جاءنا من الجهة المشرقية غيركم. وكنا نظن أن ليس بها غير الماء المحيط.

ولما وصل المركب بعد إشرافه على الغرق مرات، ودخل بلاد الأندلس، سأل ملكها الركاب: من أين جئتم؟ ومن أين لكم ما معكم؟ فأخبروه بأمرهم. فجهّز مراكب وسيّرها، فلم يقعوا على جزيرة منها، وهلك أكثر تلك المراكب، لعظم البحر وشدة عصف الريح. وأخذ مقياس ما بين الجزيرة وبين أول ساحل الأندلس، فكان عشر درجات»[1]. (أي ١١١٣ كيلو متراً).

---

(١) الدمشقي شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع بتحقيق فران ومهران، بطرسبورغ، ١٨٦٦ م، أعيد طبعه بالتصوير=

٥ ـ وفي سنة ٧٢٤هـ حج السلطان مَنْسَى موسى ملك بلاد التكرور بغرب أفريقية (مكان أجزاء من مالي والسنغال وموريتانيا والنيجر حالياً). وتوقف في رحلة الحج بمصر، فروي فيها أن السلطان الذي قبله ـ واسمه محمد بن قو[١] ـ كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك. فجهز مئتي سفينة، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين. وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته، أو تنفد أزوادهم. فسافروا، ولكن لم يعد إلا قائد الأسطول بسفينة واحدة. فسأله عن أمر الرحلة فقال: «سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة، فابتلع تلك المراكب. وكنت آخر القوم، فرجعت بسفينتي».

ولكن الملك لم يقتنع بأن ذلك الوادي ذي الجرية

= في أسنابروغ سنة ١٩٨٢ م، ثم طبع بإعادة صف الأحرف ببيروت سنة ١٩٨٨ م، ص ١٣٥ من طبعة أوروبا، وص ١٧٩ من طبعة بيروت.

(١) أرسلان، شكيب، حاضر العالم الإسلامي، وهو تعليقات وأبحاث مستفيضة عن أحوال المسلمين وتاريخهم شرحاً على كتاب مختصر بنفس العنوان لكاتب أمريكي، الطبعة الرابعة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣ م)، ٣/ ٣١.

العظيمة نهاية المطاف في الأطلسي. فجهز ألفي سفينة: ألفاً للرجال، وألفاً للأزواد. واستخلف السلطان مَنْسَى موسى، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك. فكان آخر العهد به وبمن معه[1].

ونستنتج من تاريخ رحلة حج السلطان موسى أن السلطان محمد قام بمغامرته حوالي سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م.

٦ ـ وفي سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م كان ملك المغرب أبو الحسن علي بن سعيد المريني بمدينة سبتة. فاجتاز به نفر من بحارة جنوة وأخبروه عن رحلة قاموا بها إلى الجزائر الخالدات. وإذا أهلها عراة لا يستترون إلا بشيء تافه يستر عوراتهم؛ وقد احتل الجنويون الجزيرة بعد معركة قصيرة مع أهلها البدائيين الذين فروا من السهام، ولم يجدوا فيها من الحيوان إلا الماعز فقط. وقد جلبوا عبيداً من أهلها، قدموا

(١) العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، طبع منه الجزء الأول بتحقيق أحمد زكي باشا، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، وطبعت منه أقسام صغيرة متفرقة، كما طبعت مخطوطته مصورة دون تحقيق بفرانكفورت سنة ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩م.

منهم رجلين إلى سلطان المغرب. ولما تعلّم الرجلان العربية أخبرا أن أهل الجزائر الخالدات لم تبلغهم قط خبر دعوة الإسلام، ولا سمعوا له ذكراً.

ولما توفي أبو الحسن وقام ابنه (أبو عنان)، تاقت نفسه إلى فتح تلك الجزائر. فجهز قائد الأسطول بميناء أزمور المغربي في غراب (سفينة) مشحون بالأزودة والرجال، فغاب في البحر شهرين، وعاد من غير أن يعرف لها خبراً.

هذا ما رواه المقريزي في مخطوطة فريدة عنوانها «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، نقلاً عن ابن خلدون الذي عاصر الحادثة. قال ابن خلدون:

«فأخبر هذا القائد السلطان أبا عنان بحضوري أنه سار في البحر حتى شاهد البخار وقد انعقد على الماء. فصار المركب كأنما تخرق في شجم، فضاقت أنفسهم لانعقاد البخار، وكادوا يهلكون، فلذلك رجعوا. وأخبروا عن عجائب شاهدوها في البحر. وأقام القائد مدة، فاتفق أنه حكى للسلطان في بعض الأيام أخبار ما وقف عليه في غيبته في البحر، إلى أن قال: ومرّ طائر أخضر. فغضب السلطان وقال: ويلك! وهناك كانت الجزائر، فإن الطير لا يكون

إلا حيث الماء والمرعى، وهما في الجزائر. فتلكأ القائد في الجواب، فأمر به فجرد من ثيابه، وضرب زهاء خمسمئة سوط عقوبة له على تقصيره في الطلب»[١].

وروى ابن خلدون القصة نفسها في مقدمته، ولكن باختصار ودون ذكر البلد التي خرج منها الإفرنج الذين أسروا رجالاً من أهل الجزر[٢].

نلاحظ من هذا الخبر دقة ووضوح المعلومات؛ لأن ابن خلدون كان شاهداً على الجزء الأخير من القصة، حيث دار الحوار بين قائد الأسطول والسلطان بحضوره كما قال. أما الجزء الأول ـ وهو وصف الجنويين للجزر ـ فلا بد من أن يكون السلطان نفسه وبعض الذين قابلهم ابن خلدون في بلاطه هم الذين شهدوا ذلك. ونلاحظ كذلك أن بعضاً من

---

(١) التازي، عبد الهادي، (حول المغرب واكتشاف أمريكا)، مجلة (الفيصل)، العدد ١٥٦، السنة ١٣، جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ/ يناير ١٩٩٠ م، الرياض، ص ٥٨ ـ ٦٢.

(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، وهي الجزء الأول من كتاب التاريخ الذي ألفه، طبعة محققة ومزودة بفهارس كشافة، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧م)، ص ٩١ ـ ٩٢.

جزر المحيط الأطلسي كان أغلب حيواناتها التي اشتهرت بها الماعز. برغم شكوك الباحثين الحاليين مثل لندي[١] وحسين مؤنس[٢] حول وجود جزيرة الغنم التي ورد ذكرها عند الإدريسي أكثر من مرة.

ويرى عبد الهادي التازي أن فترة الشهرين التي غاب فيها المركب تعني أن المقصود ليست الجزائر الخالدات، وإنما هو استكشاف العالم الجديد[٣]. حيث كان العرب والمسلمون يعتقدون بوجود بلاد بعد الجزائر الخالدات، كما سنرى فيما يلي من هذا البحث.

* * *

---

(١) LUNDE, P., "Pillars of Hercules...." ibid., p.13.

(٢) مؤنس، تاريخ الجغرافيين في الأندلس، ص ٢٧٧.

(٣) التازي، حول المغرب واكتشاف أمريكا، مجلة الفيصل، ص٥٨ـ٦٢.

ثانياً: معرفة وجود جزائر وبلاد بعد الجزائر الخالدات

كان المسلمون بالأندلس وأفريقية على يقين من وجود أرض بالطرف الغربي للمحيط الأطلسي. يدل على ذلك الأقوال العديدة التي نسرد بعضها هنا:

١ ـ ففي الفصل السابق من هذا البحث مرّ بنا أن السلطان الأفريقي محمد بن قو كان يظن بأن البحر المحيط له غاية تُدرَك.

٢ ـ ونقل عن محيي الدين ابن العربي أن وراء المحيط أمماً من بني آدم وعمراناً[١].

٣ ـ وروى ابن فضل الله العمري عن شيخه محمود بن

(١) محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، (مصر: المطبعة الإعلامية، ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣ هـ): ١/ ٨٥.

أبي القاسم الأصفهاني (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) قوله: «لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى. وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا، أو من أنواع وأجناس أخرى»[١].

٤ ـ وكانت الجزر الخالدات أو جزائر السعادات معروفة عند الجغرافيين المسلمين. والمعتقد بين الباحثين اليوم أن الاسمين (واسم ثالث هو جزائر الراحات) كلها تطلق على الكناري. أو مجموعة تطلق على الكناري وأخرى تطلق على الأزور. ولكن ابن ماجد ـ وهو ربان وعالم بحار محقق ـ يرى أن هذه المجموعات الثلاث مختلفة[٢]. وكذلك يفرق ابن سعيد المغربي بينهما، فيجعل جزائر

---

(١) العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٣١ من طبعة زكي باشا.

(٢) TIBBETTS, G.R. "Arab Navigation in The Indian Ocean Before The Coming of the Portuguese, being a translation" of: "Kitab al-Fawa'id" of Ahmad b.Majid, (publ. by) The royal Asilatic Society, London, 1981, p.902.

السعادات بين الخالدات والبر. وعدد الخالدات عنده ست جزر غير مسكونة، أما السعادات فهي أربع وعشرون جزيرة[١]. وقد استنتج الذين درسوا وصف ابن سعيد للبلدان الأفريقية أن التي يعنيها بالخالدات هي جزر الرأس الأخضر Cape Verde، والسعادات هي الكناري[٢].

ويسرد الإدريسي عن جزر الكناري كلاماً مفصلاً ومليئاً بالخرافات، فيختلط في معلوماته الواقع بالخيال. فيذكر منها: جزر ساوة والسعالي وحسران والغور والمستشكين وقلهان والأخوين الساحرين (وهي الجزيرة التي تقابل ساحل المغرب ويرى دخانها من البر كما مرَّ بنا في الفصل السابق من هذا البحث) وجزيرة الغنم (التي زارها المغررون ثم إفرنجة جنوة كما مرَّ بنا) وراقا التي هي جزيرة

---

(١) ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليقات إسماعيل العربي، (بيروت: المكتب التجاري (دار الآفاق الجديدة)، ١٩٧٠ م)، ص ٩٠.

(٢) LUNDE, P., "Voyages of the Mind", Aramco World, vol.43, no.3. may-june 1992, p.4.

الطيور والشاصلد ولاقة. ثم أردف وصفه الطويل بقوله:

«وفي هذا البحر من الجزائر على ما ذكره (بطليموس الأقلودي) سبعة وعشرون ألف جزيرة ما بين عامرة وغامرة. وإنما ذكرنا منها قليلاً من كثير مما قرب مكانها من البر ووصلت العمارات إليه. وأما غير ذلك فلا حاجة بنا إلى ذكرها هنا»[1].

وفي موضع آخر ذكر جزيرتين قال بأنهما من الجزائر الست الخالدات وهما مسفهان ولغوس. ونقل من كتاب في العجائب للمسعودي أن فيهما دواب هائلة وأموراً تطول أوصافها وتمتنع العقول عن قبولها[2].

فنلاحظ أن الإدريسي يحدد الخالدات بست جزر ذكر منها مسفهان ولغوس، أما الجزر الأخرى فلم يعطها تسمية محددة، ولا يوجد اسم جزر السعادات أو الراحات عنده.

ولا حاجة بنا إلى بذل كبير جهد لإثبات أن الجزر التي

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٢٢١.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

ذكرها الإدريسي حقيقية ؛ فقد وصل القرطاجيون وغيرهم من رواد البحر إلى تلك الجزر قبل المسلمين. والمسلمون أنفسهم كانت لهم رحلاتهم التي ذكرناها، ليس فقط إلى الكناري والأزور وإنما إلى العالم الجديد في رحلات لم تعد. ثم إن معلومات الإدريسي التي تبدو غريبة في البداية أثبتها من جاؤوا بعده، مثل جزيرة الغنم التي شاهدها قراصنة جنوة وأحضروا منها العبيد كشهود عيان كما مر بنا.

عرف الأوروبيون جزر الكناري في القرن الثالث عشر الميلادي. والأزور عرفوها في عام ١٤٢٠م. وجزر الرأس الأخضر Cape Verde عرفوها في عام ١٤٦٠م، أي قبل ثلاثين سنة من رحلة كولمبس إلى العالم الجديد[١]. وهي كانت معروفة جيداً لدى عرب الأندلس وشمال غرب أفريقية كما رأينا. وكما يقال عن الأوروبيين بأن استكشافاتهم لجزر الأطلسي كانت فتحاً لما بعدها من العالم الجديد، فإن القول نفسه يمكن أن نقوله عن المسلمين: معرفتهم لجزر البحر

(١) MACROPAEDIA, Encyclopaedia Britannica, 1981, entries: Cape Verde Island, Azores.

المحيط جعلتهم يوقنون بأن وراءها عوالم لم تكتشف، كما توضح النصوص السابقة.

وهناك سبب آخر لا يخفى على الدارس، وهو انتقال المعلومات عن العالم الجديد من الشعوب التي سبق أفرادها إلى هناك، مثل القرطاجيين والنوميديين كما مرّ بنا، ومن رحلات قام بها رواد مسلمون، كما يظهر من الدراسات الحديثة في الآثار وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا). وهي الدراسات التي سنشير إليها في الفصل الرابع من هذا البحث.

* * *

ثالثاً: الرحلات إلى الأمريكتين من المحيط الهادي

عُرفت اللغة العربية في شمال أفريقية منذ القدم؛ فأحد النقوش المكتوبة باللغة النوميدية (أي العربية التي كان يستعملها سكان شمال أفريقية ويكتبونها بكتابة تعرف بالنوميدية) يرجع إلى العام ١٣٩ قبل الميلاد. أي قبل الفتح الإسلامي لشمال أفريقية بثمانمئة عام.

ومثل هذه النقوش وجدت في شمال أفريقية، كما وُجدت في أمريكا الشمالية. والتي وُجدت بأمريكا تعود إلى العام ٢٣٢ قبل الميلاد، عندما قام رحالة يدعى (ماوي) من ليبيا الحالية برحلة عبر المحيط الهادي إلى أمريكا الشمالية. وهذا مما تبين من خرائطه التي عثر عليها في النقوش. فنلاحظ أن مثل هذه الرحلات تمَّت بعكس اتجاه رحلات القرطاجيين الذين عُثر على آثارهم في الكناري وغرينلاند وشرق أمريكا الشمالية، أي أنهم قطعوا الرحلة إلى العالم الجديد عبر المحيط الأطلسي[1].

(١) باري فل، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ص ٢٥٧ ـ ٣١٦.

وتبيِّن نقوش أمريكا الشمالية المكتوبة بالعربية السبب الواضح لوجود كلمات عربية في لغات الهنود الأمريكيين!.

وهناك نقوش عثر عليها بالسلفادور تعود إلى الفترة من القرن الرابع إلى السادس الهجري (١٠ ـ ١٢م) تقول بزيارة ملاحين من ملقا ـ الملايو ـ. وهي الفترة التي كانت فيها الملاحة العربية مزدهرة في الشرق الأقصى[١].

وقد وردت في كتب العرب القديمة إشارات إلى مهارة عرب الأندلس في الرحلات الطويلة بالشرق الأقصى ومعرفتهم لجزره ومياهه. ففي كتاب (عجائب الهند) لبزرگ بن شهريار وصف رحلة بحرية تمَّت في بحر الصين، وتعرَّض فيها الركاب إلى الأعاصير والأمواج. ثم اقتربوا من جزيرة بها نيران هائلة الحجم، فزاد رعبهم. وكان في المركب شيخ من قادش، وهي ميناء أندلسي شهير، فسأل الربان عما يخيفه، فقال الربان: «من هذه النار التي ملأت الأفق. والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ، ومعي أبي

---

(١) باري فل، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ص ٢٩٥.

وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائي. فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا خبر عنه». فقال الشيخ القادشي:

«يا ربان، لا بأس عليك ولا خوف، نجوتم بقدرة الله. هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض، فتنظر في الليل ناراً هائلة مرجفةً يخافها الجاهل، فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء. وهذه النار ترى من بلاد الأندلس. وقد عبرت عليها مرة، وهذه الثانية»[1].

ولعل الشيخ القادشي يقصد أن ظواهر مشابهة توجد قريبة من شواطئ الأندلس، وليس المقصود أن الجزيرة التي ببحر الصين ترى من قادش!!.

وابن ماجد الملاح الشهير أشار في أراجيزه إلى قِدَم

---

(١) الرامهرمزي، بزرك بن شهريار (ألّف كتابه حوالي ٣٤٢ هـ/ ٩٥٣ م) عجائب الهند، ليدن بين عامي ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦ م، أعيد طبعه مصوراً بطهران سنة ١٩٦٦ م، ص ١٩ ـ ٢٨.

رحلات الأندلسيين في المشرق بقوله[1]:

وقيل كان في قديم الدهر مراكب الإفرنج تأتي القُمر
أيضاً ويأتون لبرّ الزنج والهند نقلا عن ذوي الإفرنج

وكانت الرحلات حول أفريقية عادية عند الأندلسيين والمغاربة. يقول بوش غِمبرا Bosch Gimpra: «إن الرحلات التي قام بها ملاحو قادش استمرت إلى أبعد مما وصلوه في الماضي. فحققوا من جديد الملاحة حول أفريقية في الاتجاه العكسي الذي ذكره هيرودوت في أيام الملك نيسو. وحاول آخرون سلوكه ولكنهم فشلوا. ويبدو أن الملاحة حول أفريقية صارت شيئاً عادياً، وقد كثر الحديث بعد عهد

---

(١) ابن ماجد، أحمد، (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)، تحقيق إبراهيم الخوري، مجلة المعهد الفرنسي، دمشق، المجلد ٢٤ (١٩٧٢م)، الصفحات ٢٥٠ ـ ٣٨٥.
ثم نشرت في سلسلة (كتاب الأبحاث)، مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة، ج ٥ من كتاب الأبحاث، ج ٢ من سلسلة ابن ماجد، ١٩٨٩ م. البيتان (٩٩ ـ ١٠٠) من الفصل الخامس.

الإمبراطور أغسطس عن المراكب القادشية المجهولة التي جابت السواحل الإفريقية من الغرب إلى الشرق، للاتّجار مع بلاد الصومال وبلاد العرب. ولا شك أن هذه الرحلات كانت معدة ومنظمة من قبل، لتجنب الضرائب التي فرضها البطالمة على البضائع»[١].

وفي حوالي القرن السادس أو السابع الهجري (١٢ ـ ١٣م) عُرف رحالة مسلم يدعى (ابن فاطمة)، ويظن أنه من أهل غرب أفريقية[٢]. ولكن لا نعرف كثيراً عن تفاصيل حياته، سوى أنه قدَّم إلينا كمية وافرة من المعلومات حول سواحل أفريقية، حسب ما نقله ابن سعيد المغربي[٣]. وقد دار ابن فاطمة هذا حول القارة حتى وصل إلى (مدغشقر) التي وصف سكانها وصف عالم محيط بأحوالها[٤]. وقد وصف

---

(١) فرنيت، خوان (هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية؟)، صحيفة معهد الدراسات العربية المصرية بمدريد، العدد الأول، المجلد الأول، ١٩٥٣م، ص٨٢.

(٢) مؤنس، تاريخ الجغرافيين في الأندلس، ص٥٠٧.

(٣) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، عدة مواضع.

(٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٣٨٧.

بعض الجزر القريبة من السواحل والخلجان الضحلة التي لا تسلكها السفن الكبيرة، وذلك بمنطقة غرب أفريقية التي تسمى بلاد السنغال حالياً[١]. وتمثل كشوفه في سواحل ووسط أفريقية فتحاً جديداً في الجغرافية. بحيث كانت معلوماته مجهولة لدى الأوروبيين إلى مئتي عام بعده[٢].

وقد أشار الرحالة البرتغالي بيرو دا كوفيلها Pero da Covilha في رسالة كتبها من القاهرة إلى الملك خوان الثاني سنة ١٤٨٧م إلى أن العرب يعرفون رأس الرجاء الصالح معرفة جيدة[٣]. وهذا قبل أن يعرفه الغربيون الذين لم يعرفوه إلا بعد رحلات بارثليمو دياز وفاسكو داغاما في السنوات التي تلت الرسالة المذكورة.

* * *

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ٩٠، ٩١، ١١١، ١١٣.
LUNDE,P.,"Voyages of the Mind", ibid.p4.

(٢) ابن سعيد المغربي السابق، ص ٧٢.

(٣) إسماعيل العربي، تقديمه لكتاب ابن سعيد المغربي
BEETON,ibid,.pp. 1039 & 1040.

رابعاً: الاكتشافات الحديثة عن هنود أمريكا

نشـرت جريدة الهدى العربيـة التي كانت تصدر في نيويـورك أن تجاراً متجولين من الأتـراك عثروا في منطقـة سيموجوفل[١] الجبلية بالمكسيك على قبيلة تتكلم العربية، وتقطن منطقة جبلية منيعة. وكانت تلك القبيلة ما تزال تعيش في عزلة عن العالم، ولم تتصل بمن حولها. وكانت محافظة على عاداتها العربية الإسلامية. وقال أفرادها لأولئك التجار أنهم يقطنون تلك الديار منذ مئات السنين[٢].

ونشرت صحيفة «الغربال» العربية الصادرة في مكسكو أن رحالةً لبنانياً يدعى طنوس الشنتيري قام بزيارة القبيلة نفسـها وتحدث معهم باللغـة العربية. وفهم منهم أنهـم من عرب «سـجلماسـة» بالمغرب. وأنهم لا يسـمحـون لأحد

---

(١) Simojovel de Allende (17"12" N.92"38" W)

(٢) جعفر، إحسان، ابن الوردي وصف أمريكا قبل اكتشافها بمئة عام، مجلة (الفيصل)، العدد ١٧٩، السنة ١٥، جمادى الأولى ١٤١٢هـ/ نوفمبر ١٩٩١م، الرياض، ص٩٩.
وهو ينقل معلوماتـه عن كتاب (مآثر العرب والإسـلام في القرون الوسطى) تأليف عبد المنعم الغلامي، الموصل ١٩٤٠م، ص١٥٩.

بدخول منطقتهم. وأن لديهم أموالاً وتحفاً وآثاراً كثيرة يودون لو استطاعوا إيصالها إلى مكة المكرمة[1].

ونشرت مجلة «الشرق» العربية الصادرة في البرازيل أن أحد المسؤولين البرازيليين وضع تقريراً رفعه إلى حكومته، أشار فيه إلى وجود مسلمين برازيليين يقطنون مجاهل ولاية باهيا البرازيلية منذ زمن بعيد، ويعرفون باسم «الوفائيين» أو قبيلة الوفاء. وعددهم كبير؛ لأنهم يزيدون على نصف الزنوج الموجودين في تلك الولاية. ويقول المسؤول البرازيلي بأن أولئك المسلمين دخلوا إلى البرازيل منذ قرون عديدة، قادمين إليها من أفريقية[2].

وفي شهر أبريل ١٩٦١م ألقى هوي لزلي - وهو عالم نبات أمريكي من أصل صيني - بحثاً في مؤتمر الجمعية الشرقية الأمريكية بفيلادلفيا، بيَّن فيه استناداً على وثائق صينية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أن مدينة تدعى «مولان بي» على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية كانت مصدراً لمحاصيل يتاجر بها التجار العرب.

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع السابق نفسه.

ومن تلك المحاصيل الذرة الصفراء والقرع العسلي والفواكه التي نعرفها باسم الجوافة والباباي والأناناس. وهذه كلها لم تكن معروفة قبل كولمبس، إلا أن الوثائق أثبتت أنها كانت معروفة لبحارة العرب الذين قاموا قبل عام ١١٠٠م من ميناء الدار البيضاء في المغرب، ورسوا في عدة مواضع في الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية. وقد توصل العالم لزلي إلى هذه النتائج بعد أن أمضى ثماني سنوات في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات في شتى أنحاء العالم(١).

وقد بيّن بعض الباحثين أن كلمات عربية عديدة وُجدت في لغات هنود الأمريكتين، وأن بعض هذه الكلمات يعود إلى عام ١٢٩٠م، أي قبل كولمبس بقرنين(٢).

وبيّن باحث فرنسي يدعى القومندان كوفي Cauvet سنة ١٩٣٠م أن أسماء قبائل عديدة للهنود الأمريكيين ترجع إلى شمال أفريقية في الأصل. وأعطى الأمثلة العديدة على ذلك. ولكن نكتفي بالإشارة إلى المصدر الذي سرد هذه الأمثلة،

---

(١) الشهابي، الجغرافيون العرب، ص٣٥-٣٦.

(٢) جعفر، ابن الوردي وصف أمريكا قبل اكتشافها بمئة عام، نقلاً عن كتاب «إفريقيا واكتشاف أمريكا» تأليف ليووبتر.

دون إثقال البحث بسردها مرة أخرى[1].

وقد مرّ بنا أن نصاً عربياً عثر عليه في كهف بالسلفادور يفيد بوصول ربابنة من ملقا (الملايو). وقد قدر تاريخه بالفترة من القرن الرابع إلى السادس الهجريين (١٠ ـ ١٢م)، أي الفترة التي شهدت نشاط البحرية العربية الإسلامية في الشرق الأقصى[2].

ووردت نقوش عديدة بالخط الكوفي المغربي، دليلاً على أنها نُقشت بعد الإسلام، وذلك في مناطق شهدت تحضُّراً وازدهاراً ثقافياً قبل عام ١٢٥٠م، وهو العام الذي شهد غزوات همجية ضد الأقاليم المتحضرة بأمريكا الشمالية، فرحل الذين كانوا يكتبون النقوش[3].

وبعض النقوش التي اكتشفت بأمريكا الشمالية تحمل اسم النبي ﷺ وبعض آيات القرآن الكريم[4].

* * *

---

(١) التازي، حول المغرب واكتشاف أمريكا، مجلة الفيصل، ص ٥٩.

(٢) باري فل، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ص ٢٩٥.

(٣) باري فل، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ص ٣٠٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٤١٦.

خامساً: تأثير حضارة الإسلام على كولمبس

عندما أبحر كولمبس إلى الغرب في رحلته الشهيرة سنة ١٤٩٢م كان معه من الآلات الفلكية بوصلة بحرية من اختراعات ملاّحي العرب، وتنسب إلى الملاح الشهير أحمد بن ماجد، وربع مجيّب طوره الفلكي الشهير كمال الدين بن يونس، وخرائط بحرية، ومزاول شمسية، وجداول فلكية، وخيوط رصاص لسبر أغوار البحر، وكل هذه الأدوات الأخيرة من اختراعات الأندلسيين المسلمين(١).

وبرغم أن المصادر الغربية تقول بأن كولمبس لم يطلع على الكتب العربية لأسباب دينية وسياسية واضحة: فالنصارى من إفرنجة الغرب المؤيدون لملكي إسبانيا كانوا في حالة حرب مع المسلمين، إلا أن الكتب الغربية التي اطلع عليها كانت معتمدة على معلومات المسلمين في الفلك

---

(١) YANEZ-BARNUEV, LUIS: Preface of the book "AL-ANDALUS by J.Vernet and R.Masats, (publ, by) Comision Quinto Centenario/Lunwerg, Madrid, 1992, p.184.

والجغرافية وعلوم البحار وكل ما يتصل برحلة كولمبس. فالمعلومات الموثوقة الحديثة في ذلك العهد لم يكن بالوسع الحصول عليها إلا من مراكز الحضارة والعلم في الأندلس وديار الإسلام. فالكتب التي كان يكثر من قراءتها مثل كتاب «صورة العالم Imago Mundi للكردينال بيير الأيلي Pierre d Ailly» كانت معتمدة على مصادر عربية.

يقول كراتشكوفسكي في هذا الصدد: «وقد لعب بطرس الآيي Petrus de Aliaco أسقف كمبري Cambrai (١٣٣٠ ـ ١٤٢٠م) دوراً خطيراً بالنسبة للعلم الأوروبي والكشوف الجغرافية التالية، خاصة بفضل رسالته «صورة العالم» التي تم تصنيفها حوالي عام ١٤١٠م وتم طبعها حوالي عام ١٤٨٠ـ١٤٨٧م.

وإذا كانت الرسالة في حد ذاتها لا تمثل أهمية كبرى من وجهة نظر الدراسات العربية؛ إذ لا تتضمن في الواقع سوى بضع مقتطفات من الترجمات اللاتينية لابن رشد وابن سينا وعلي بن العباس والفرغاني، إلا أنه من الغريب ملاحظة أن «نظرية الأرين» (التي شرحها كراتشكوفسكي قبل صفحات ويلخصها فيما يلي بعد أسطر) تظهر فيها بحذافيرها

في المتن وفي الخارطة على السواء. وأكثر غرابة من ذلك أن يعرفها خرستوفر كولمبس. فقد حفظت لنا تعليقاته الشخصية على النسخة التي كان يمتلكها من كتاب «صورة العالم»، ومن هذا يتضح أن «نظرية الأرين» هي المسؤولة بالذات عن ظهور نظرية الشكل الكمثري للأرض عند كولمبس. ومؤداها أن في نصف الكرة الغربي من الأرض وفي مواجهة قبة الأرين مركزاً آخر للأرض على موضع أكثر ارتفاعاً من رصيفه بالجهة الشرقية. وهكذا فمهما بدا الأمر غريباً اليوم فإن النظرية الجغرافية العربية كان لها دور في كشف العالم الجديد»[١].

وينقل شكيب أرسلان عن الموسوعة الفرنسية أنه ورد في كتاب بيير الأيلي المذكور أن أرسطو وشارحه ابن رشد كانا يعتقدان أن المسافة بين ساحل أفريقية الغربي والهند غير شاسعة[٢].

ونقل عن البكري (ت: ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) عالم الأندلس في الجغرافيا قوله: «وأقيانس البحر المحيط،

---

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) أرسلان، الحلل السندسية، ١ : ٩٥.

لا يدرى ما وراؤه غرباً إلى أقصى عمران الصين شرقاً. والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر الخالدات، وبالضد». قال حسين مؤنس معلقاً على كلام البكري: «وهذه ـ ولا زيادة ـ هي الفكرة التي جعلت من كولمبس ما هو في تاريخ البشر، وكأنما أخذ أبو عبيد البكري بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم». ثم ذكر حسين مؤنس أن كولمبس خطط لرحلته في (إشبيلية) و(الربضة) وانطلق من منطقتهما. وهما قريبتان من بلدة (ولبة) التي عاش فيها البكري[1]. وهو يعتقد أن قربه من بلدة البكري أوحى إليه بأفكاره. وهذا القول فيه نظر، لأن كولمبس تأثر بقراءاته ولقائه بالربابنة المتأثرين بالبحرية الإسلامية منذ كان في إيطاليا.

وكثيراً من المؤرخين اليوم يعود فيؤكد بأن كولمبس اطلع على ترجمات كتب عربية. ولكنه لم يعترف بهذا، لا هو ولا الذين كتبوا سيرته الذاتية مثل ابنه. ولكن الواضح

---

(١) مؤنس، تاريخ الجغرافيين في الأندلس، ص ١٣٤. وهو ينقل كلام البكري من مخطوطة كتابه (المسالك والممالك)، مخطوطة نور عثمانية، رقم ٣٠٣٤، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية. وقد طبع كتاب البكري بتونس، نشر الدار العربية للكتاب وبيت الحكمة، ١٩٩٢.

أن معيشته بالأندلس وفَّرت له من المسلمين معلومات أُخر ضرورية لرحلته، بل وأساسية لجعله يفكر في رحلة من هذا النوع: فهي تتحدث عن رحلات في أعماق الأطلسي، وأن في المحيط جزراً وأقواماً، وتصف تلك الجزر وما فيها، كما مرَّبنا في الأجزاء الأولى من هذا البحث.

وهذا بالضبط ما يحدثنا به ابن كولمبس، حيث يقول بأن أباه «قرأ كتب الحكماء. وسمع قصصاً عديدة عن بحارة مغامرين سافروا وتاجروا في جزر وبحار غرب الأزور وماديرا. وهذه القصص كانت توافق هواه وأفكاره، ولم يكن يملّ من تردادها ليشبع غريزة حب الاستطلاع لكل من يستمتع بالاستطلاع»(١).

وكانت رحلات العرب والمسلمين حول أفريقية

---

(١) VINCENT-BARWOOD, A. "Columbus: What if?", Aramco World, vol. 43, no. 1 janury-Feb. 1922, pp. 2-9; LYON, E. "Search for Columbus", National Geographic, vol. 181, no 1, january 1992, p. 33 & 4; LLUNDE, P. "Pillaresof Herceeles". Ibid, P. 17. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٤٧؛ جعفر، ابن الوردي، وصف أمريكا قبل اكتشافها بمئة عام، ص ٩٦.

سبقت الأوروبيين، وكشوفهم لجزر المحيط الأطلسي سبقت اكتشافات الفرنجة. وإعادة اكتشاف هذه الجزر من قبل الأوروبيين - أو بالأصح احتلالها من أجل استعمارها - أدى إلى التفكير فيما وراء تلك الجزر، وهو التفكير الذي سبق إليه المسلمون كما رأينا في ثانياً من هذا البحث.

ومن الكشوف التي أدت إليها رحلات العرب والمسلمين في أعماق الأطلسي معرفتهم لتيار الخليج Gulf Stream، وهو تيار دافئ ينساب في المحيط الأطلسي، مبتدئاً من خليج المكسيك، ماراً بقناة بهاما، ويتفرع فرعين: أحدهما يتجه إلى أوروبا، والآخر إلى أفريقية. وقد مرّ بنا سالفاً في هذا البحث أن السفن التي أرسلها ملك التكرور لم يعد منها غير قائدها الذي عاد يحكي بأن السفن سارت زمناً طويلاً، حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة، وادٍ له جرية عظيمة، فابتلع المراكب. وكان ذلك في حوالي سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، أي قبل بونس دي ليون Ponce de Leon الذي يُنسب إليه اكتشاف تيار الخليج بنحو مئتي عام.

* * *

سادساً: الموريسكيون وأمريكا

يعرّف الموريسكيون Moriscos بأنهم المسلمون الذين بقوا في شبه جزيرة الأندلس بعد سقوط آخر معاقلها (غرناطة) سنة ١٤٩٢م. وقد أثبتت الحوادث والثورات مرة بعد مرة طوال عدة قرون أنهم تظاهروا بالتنصر، ولكنهم كانوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي سراً، هم وأبناؤهم من الأجيال التي جاءت بعدهم[1].

مُنع الموريسكيون من السفر إلى الهند الغربية أو مستعمرات الإسبان بالعالم الجديد، وذلك لأسباب

---

(١) أنطونيو هورتز، وبرنارد بنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس، تعريب عبد العال صالح طه ومراجعة محمد محيي الدين الأصفر، (الدوحة: دار الإشراق، ١٩٨٨ م).
التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، (تونس، زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، ١٩٨٩ م)، ص ٤٩ ـ ٦٦.

لا تخفى على العاقل؛ فالمستعمر كان يهدف إلى استغلال الأرض الجديدة وإبادة أهلها ـ أو تنصيرهم مع جعلهم مواطنين من الدرجة الثانية ـ أو استعبادهم. والمطلوب لهذه المهمات رجال ذوي قلوب ضالة وضمائر ميتة. ولا يتوفر هذا في الموريسكيين الذين كانوا أصلاً مضطهدين مع اليهود والبروتستانت والغجر في إسبانيا نفسها.

ولهذا مُنعت كل هذه الطوائف المضطهدة من المشاركة في الحملات الاستعمارية على الهند الغربية. وهي الحملات التي لسنا بحاجة إلى ذكر ما حصل فيها من إبادة للهنود الأمريكيين، وإيقاع الأبطال الأقوياء منهم بالغدر والخيانة، واحتلال للديار والثروات بالنهب والسلب.

ويضاف إلى هذا السبب غير المعلن سبب آخر معلن وهو: الخوف من انتشار الدين الإسلامي بين الهنود الأمريكيين، بدلاً من الدعوة المعلنة إلى النصرانية الكاثوليكية. وانتشار الإسلام يؤدي في النهاية إلى طرد الإسبان من الهند الغربية[١].

---

(١) LUNDE, p. "Muslims and Muslim Technology in the New World", Aramco World. vol. 43 no. 3, May-June 1992, pp. 38-41.

إلا أن عدداً كبيراً من الموريسكيين هاجر برغم هذا المنع إلى الأمريكتين، ومارس شعائر دينه هناك. وقد نجح هؤلاء في الإفلات من المنع إما بتقديم الرشوة، أو لتغاضي السلطات عن المنع لحاجتهم إلى بحارة وجنود يواجهون أخطار الرحلة الطويلة، أو بسبب اصطحاب الإسبان لعبيد مسلمين معهم في الرحلة، دون أن يصرحوا للسلطات بإسلام عبيدهم(١).

وقد لاحظ المستعمرون الإسبان أن عدداً كبيراً من المسلمين واليهود والبروتستانت قد وصلوا إلى العالم الجديد. فطالبوا بإقامة ديوان تفتيش بالأمريكتين، على غرار أمثاله في إسبانيا. وهكذا تم تأسيسه سنة ١٥٦٩م. وأعطى الباحث الفرنسي كاردياك أمثلة لحوالي عشر حالات اتهم فيها أناس بالانتماء إلى أصل موريسكي، أو ممارسة شعائر

---

(١) كارادياك، لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجادلة الكلامية ١٤٩٢ ـ ١٦٤٠م، مع ملحق عن الموريسكيين بأمريكا، تعريب عبد الجليل التميمي، (تونس، ١٩٨٣م)، ص ١٥٢؛ هورتزوبنثنت، المرجع السابق، ص ١٥٠.

الدين الإسلامي[1]. وذكر المستعرب البريطاني (الندي) أن خمس حالات أحصيت في مدينة (ليما) وحدها خلال القرنين ١٦ و١٧ للميلاد. حيث اتهم الأشخاص في تلك الحالات بممارسة شعائر الدين الإسلامي سراً[2].

هذا عن الحالات التي اكتشفت من قبل ديوان التفتيش. ولكن ظلت قبائل ومجتمعات إسلامية عديدة تمارس شعائرها سراً وعلناً حتى يومنا هذا، كما رأينا في (رابعاً) وسنرى في (سابعاً) من هذا البحث.

فمن المسلمين الذين أقاموا المدة ١٥ سنة في بيرو (بين عامي ١٥٦١ ـ ١٥٧٦م) مسلم تركي من أصل صقلي، سمَّى نفسه الكابتن جورجيو زاباتا G.Zapata، وقد عمل في تعدين الفضة مع شريك له إسباني يدعى رودريكو باليز R. Palez. وبعد إقامة تلك السنوات في المنجم الواقع في مرتفعات عالية باردة، غادر بيرو محملاً بالذهب والفضة،

---

(١) كاردياك، المرجع نفسه، ص ١٥٣ ومواضع عديدة أخرى.

(٢) LUNDE, p. "Muslims & Muslim Technology...", ibid., p.40

عائداً إلى موطنه (أي إسبانيا كما تخيل أصدقاؤه). ولكنه عاد إلى إستنبول، وأهدى السلطان العثماني مراد الثاني كمية كبيرة مما معه من ثروة. وعاد إلى إشهار إسلامه واسمه الحقيقي (أمير جفالة). وقد صار قائداً لأسطول العثمانيين بغربي البحر المتوسط، ثم والياً على الجزائر.

وفي سنة ١٥٩٦م، أي بعد عشرين عاماً من تركه بيرو، هاجم أسطول إنكليزي مدينة قادش الإسبانية. وأسر خلال ذلك الهجوم الإسباني باليز صديق المسلم. وبيع عبداً، فانتقل من يد إلى يد، حتى التقى في الجزائر بصديقه القديم الذي أعتقه وردَّه مكرماً إلى إسبانيا.

وقد روى أمير جفالة لصديقه أنه رأى ٢١ تركياً وصلوا إلى بيرو خلسة من أجل العمل فيها خلال الأعوام التي قضاها هو هناك[١]. وغني عن القول هنا أن من المستحيل إحصاء عدد المسلمين الذين كانوا يصلون إلى هناك؛ لأنهم كانوا يصلون بأسماء نصرانية مستعارة ويخفون إسلامهم.

---

(١) Ibid.

ومن الموريسكيين الذين ولدوا بعد سقوط غرناطة، وسافروا عدة مرات إلى أمريكا الريس إبراهيم بن أحمد غانم الأندلسي الشهير بالرباش، الذي ولد حوالي سنة ١٥٧٠م. وقام بعدة سفرات بين إشبيلية والهند الغربية. ويحدثنا عن هذا بقوله: «وتولَّعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مراراً. ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالغليونية - بالأعجمية -، التي تأتي بالفضة من الهنود المغربية البعيدة. فكانت تمشي عمارة (أي مسلحة) كما هي من عادتهم. وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية».

واستمر بعد ذلك يدرس آلات البارود والمدافع فأتقنها، ووقع في السجن لاكتشاف أمر إسلامه، ولكنه خرج من السجن بواسطة أصدقاء له. ثم غادر إسبانيا باستعمال الرشوة. فذهب إلى تونس، وصار قائد أسطول يغزو بلاد الإسبان، فجرح خلال ذلك وأسر، وسجن سبع سنوات. وبعد فك أسره تولى قيادة قلعة حلق الواد التونسية، لخبرته

في المدفعية. وفي سنة ١٦٣١م ألّف كتاباً متقناً في المدفعية، وذلك باللغة الإسبانية التي لم يكن يقرأ ويكتب إلا بها. ثم عرّب الكتاب صديق له أندلسي، فأنجز الترجمة سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م. ومن هذا الكتاب النفيس نسخ عدة بمصر ودول المغرب العربي، منها النسخة الأم بالرباط[١].

أظهرت إحدى الإحصائيات أن ٣٨ بالمئة من الذين هاجروا إلى الأمريكتين بين عامي ١٤٩٢ ـ ١٦٠٠م هم من مقاطعة الأندلس الحالية: أي من مدن غرناطة وإشبيلية وقرطبة التي كانت معقل الحضارة العربية الإسلامية في أواخر أيام العرب المسلمين في الأندلس. وهذا أدى إلى انتقال الخبرات العربية الإسلامية إلى العالم الجديد. ومن هذه الخبرات صناعة السكر وزراعة القطن اللتين لم تعرفهما الأندلس والمغرب إلا من خلال العرب المسلمين.

---

(١) زكار، سهيل، المدفعية عند العرب، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص٣٥٣ـ٣٥٨؛ كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص ١٦١؛ هورتزوبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس، ص ١٥٠.

وبرغم أن القطن كان معروفاً عند هنود أمريكا، إلا أن الأساليب العربية الأندلسية في الزراعة أدت إلى ازدهار زراعته في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية، الأمر الذي أدى إلى غمر أسواق أوروبا ومصانعها بالقطن الأمريكي، وهذا أدى بدوره إلى تراجع إنتاج القطن بالمشرق الإسلامي.

كانت جزر الكناري وماديرا التي احتلها الإسبان وأبادوا أهلها أو استعبدوهم ـ كما مرّ بنا سابقاً في هذا البحث ـ، قد كسبت خبرة في زراعة السكر وتصنيعه، وهي الصناعة التي أدخلها المسلمون إلى الأندلس من المشرق. وأدى اكتشاف أمريكا إلى استغلال أرضها في صناعة السكر، حيث كان سلعة غالية الثمن في ذلك الوقت.

ومن شدة الحرص على استغلال البلاد الجديدة في زراعة السكر نجد كولمبس في رحلته الثانية يحمل معه أعواد قصب السكر ويزرعها ضمن نباتات أخرى. وفي سنة ١٥١٧م أدخلت الصناعة إلى تلك البلاد، بعد إحضار خبراء من الكناري، وبناء الطواحين ومعامل التكرير حسب التقنيات التي تطورت في الأندلس الإسلامية.

وما يقال عن السكر والقطن يمكن قوله عن صبغ النيلة الأزرق والقرمز الأحمر. فهما كانا يأتيان إلى أوروبا من المشرق الإسلامي. ولكن بعد احتلال البلاد الجديدة صار الإسبان ينتجونها ويصدرونها إلى أوروبا من هناك. ومرة أخرى باستعمال أساليب الزراعة الأندلسية المتطورة، والتقنيات الإسلامية التي عرفتها الأندلس[١].

وقد بيّن مؤرخو الغرب أنفسهم أن الموريسكيين هم الذين كانوا بارعين في الزراعة والأعمال الصناعية، بحيث تأثر الاقتصاد الإسباني تأثراً بالغاً برحيلهم عندما رُحّلوا سنة ١٦١٠م[٢]. وهذا ما يجعلنا نوقن بأن الذين ساهموا في تطوير صناعات العالم الجديد ليس فقط التقنية الإسلامية، بل أبناء المسلمين أنفسهم من الموريسكيين.

---

(١) LUNDE, P. "Muslims & Muslims Technology...", ibid., p.41

(٢) هورتز وبثنت، تاريخ مسلمي الأندلس، ص ١٣٥ ـ ١٦٠ و ٢٥١ ـ ٢٦٨.

هذا عن دور الموريسكيين في تعمير البلاد الجديدة، ولكن كان لهم دور آخر في الاتجاه المخالف: حيث أدخلوا المحاصيل الزراعية القادمة من الأمريكتين إلى بلدان المغرب والمشرق العربي الإسلامي. ومن تلك: الذرة الصفراء والطماطم واللوبيا الخضراء والفلفل الأحمر وبعض العقاقير الصيدلية التي جُلبت من هنود أمريكا. وقد تم هذا النقل مع هجرات الموريسكيين إلى بلدان المغرب العربي وتركيا، وخاصة بعد الطرد الجماعي سنة ١٦١٠م، حين طُرد ثلاثمئة ألف دفعة واحدة، وتشرَّدوا في كل البلدان، لا يعرفون اللغة العربية، ولا يجدون استقبالاً جيداً عند إخوانهم المسلمين الذين يتهمونهم بالتنصُّر. ولم يجدوا مأوى كريماً إلا في تونس وفي إستنبول التي لم يصل إليها منهم إلا القليل، بعد رحلة فُقد فيها الكثير(١).

* * *

(١) كاردياك، الموريسكيون، الأندلسيون والمسيحيون، ص ١٤٦.

سابعاً : رحلات عرب المشرق القديمة بعد كولمبس

نتحدث هنا عن رحلتين تمتا في القرنين اللذين أعقبا رحلة كولمبس إلى الهند الغربية ، وذلك لغرضين :

أولهما أن هاتين الرحلتين من التراث القديم ، كُتبتا حين كان العالم الإسلامي لم يتأثر بعد بالأساليب الغربية في أنماط المعيشة والثقافة .

والسبب الآخر هو أن محتويات الرحلتين ومشاهدات الرجلين اللذين قاما بهما لها علاقة مباشرة بالمعلومات التي سبقت ، خاصة في الجزء السابق من هذا البحث .

نذكر أولاً مذكرات لعبد الرحمن البغدادي الذي قام برحلته عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م وعنوان كتابه « مسليات

الغريب»، منه نسخة واحدة في مكتبة الدولة ببرلين (الغربية سابقاً).

وقد قام برحلة بحرية في الأسطول العثماني من البحر الأبيض المتوسط قاصداً البصرة عن طريق رأس الرجاء الصالح. إلا أن عاصفة هوجاء هبت في المحيط الأطلسي جعلت السفينة تجنح وتتوه في المحيط أسابيع طويلة، حتى دفعتها إلى أمريكا الجنوبية، حيث نزل ركابها وبحارتها بالبرازيل.

وقد لقي المؤلف في (ريو دي جانيرو) عاصمة البرازيل عدداً من المسلمين الزنوج الذين لم يكن يتفاهم معهم إلا بواسطة مترجم. وقد قدر عددهم بحوالي خمسة آلاف. وقد طرأ على مبادئهم الإسلامية تحريف كبير. وكانوا يمارسون شعائر دينهم في الخفاء، خوفاً من القمع المتسلط ضدهم، وقد أُجبروا على التنصُّر، ولكن ظلوا في قرارة أنفسهم وفي أُسرهم وبيوتهم مسلمين صادقين (١).

---

(١) هازي، جورج، بحث عن رحلة «مسليات الغريب» للبغدادي، =

فنلاحظ من هـذه الرحلـة كثرة عدد المسـلمين في البرازيل. وقد ظلت بعض قبائل المسلمين محتفظة بدينها وتقاليدهـا حتى العصـر الحالي ـ كمـا رأينـا في «رابعاً» من هذا البحث ـ.

وهـذا مـا جعـل بعـض البـاحثيـن يعتقـد بـأن الموريسكيين هاجروا بشكل جماعي إلى البرازيل. وقد نشرت دراسة في مدريد سنة ١٩٧١م حول الوجود الإسلامي بالبرازيل في القرون الماضية[١].

والرحلـة الأخرى: قـام بها الراهب الكلداني إلياس ابن حنا الموصلي الذي غادر بغداد سـنة ١٦٦٨م في رحلـة طويلة إلى أوروبا يحاول خلالها تجميع مال من ملوكها لبناء

= الملتقى الخامس للجنـة الدوليـة للدراسـات العثمانيـة، تونـس، ١٩٨٨م، نشـر ملخصاً في صحيفـة «المسلمـون»، العـدد ١٦٦، ١٤٠٨/٨/٢١هـ. وقد نشـر تاريـخ الرحلـة على أنه ٩٣٢هـ في الصحيفة، وهذا خطأ. والتصحيح من البحث الأصلي.

(١) كاردياك، الموريسكيون، ص١٤٦.

كنيسة لطائفته في بغداد.

ولما عجز عن الحصول على المال اللازم سافر إلى الشطر الغربي بإذن حكومة البرتغال. وذلك في ٧/ ١١/ ١٠٨١هـ (١٣/ ٢/ ١٦٧٥م). وهناك قضى عشرة أعوام، حتى عاد في عام ١٦٨٥م إلى إسبانيا، وقضى أعوامه الأخيرة فيها، حيث كتب سجل رحلته، مع رسالة ملحقة عن تاريخ اكتشاف واحتلال الأمريكتين.

وقد نشرت رحلته في مجلة «المشرق» على حلقات سنة ١٩٠٥م. ثم أصدرتها المطبعة اليسوعية في ٩١ صفحة سنة ١٩٠٦م. وذلك عن نسخة محفوظة بمطرانية السريان بحلب. ومنها نسخة أخرى بمكتب نظارة الهند بلندن، أشير إليها في مقالة بمجلة «المقتطف» (المجلد ٣، الجزء ٣، سبتمبر ١٩٠٩م، ص ٨٦٠-٨٦٢)[1].

---

(١) الدغيم، محمود السيد، «أول رحلة شرقية إلى أمريكا قام بها خوري كلداني»، صفحة التراث بجريدة «الحياة»، العدد ١٠٨٢٦، ٤/ ٤/ ١٤١٣هـ، ٣٠/ ٩/ ١٩٩٢م.

نجد في الرحلة وصفاً للبلاد التي شاهدها، وهي كثيرة، وتقع كلها في أمريكا الجنوبية، من كاركاس (Charcas وتسمى حالياً Sucre وهي في بوليفيا) جنوباً إلى عاصمة المكسيك شمالاً. وكلها سافر إليها بوسائل النقل البطيئة التي لم يكن غيرها متوفراً في تلك الأيام: أي الدواب والمشي، وأحياناً القوارب.

ويتخلل هذه المشاهدات وصف التقنيات المستعملة في استخراج الذهب والفضة والزئبق، وفي صنع النيلة والقرمز والسكر[1]. وكل ذلك حسب التقنيات التي عرفتها الأندلس الإسلامية من الشرق الإسلامي - كما مرَّ بنا -.

وتختلف رحلة إلياس بن حنا عن رحلة البغدادي السابقة في أن إلياس كان نصرانياً يصاحب نواب الملك في بيرو والمكسيك. ويسكن عند رئيس محاكم التفتيش في ليما، ويحل ضيفاً مكرماً عند كل الولاة من المستعمرين،

---

(١) LUNDE, P. "The New World Through Arab Eyes", Aramco World, vol. 43 no. 3, May-June 1992, pp.56-64.

ولذلك لا تجد في رحلته شيئاً عن أحوال الإسلام والمسلمين في تلك الديار.

* * *

ثامناً: أخطاء الباحثين حول جوانب من الموضوع

كتب الباحثون العديد من المقالات، ونشروا الكثير من البحوث حول جوانب محددة من الموضوع فمنهم من تكلم عن رحلات العرب القديمة قبل كولمبس، ومنهم من تحدث عن المكتشفات الحديثة، وغير ذلك، والمراجع المذكورة في نهاية هذا البحث مجرد أمثلة على ما كتب. ولكن يجد الباحث في بعض تلك المراجع ذكر مراجع أخرى كثيرة لم نشر إليها، لكونها نُشرت بلغات لا يجيدها كاتب هذا البحث.

وطبيعي أن يقع الباحثون في هذا الموضوع الشائك في هفوات وسهوات، فهذا من طبيعة البشر، وغاية هذا البحث استكمال الموضوع من جميع جوانبه. ولهذا فإن تتبعنا لتلك الأخطاء ليس إلا من قبيل متطلبات البحث العلمي، دون أن يؤثر هذا النقد على احترامنا وتقديرنا لأولئك الباحثين الذين

لا تؤثر الأخطاء على مكانتهم العلمية، وقديماً قالوا: «من لا يخطئ لا يعمل».

وفيما يلي أمثلة لتلك الأخطاء، علماً بأن آراء أخرى قابلة للنقاش ذُكرت في الأجزاء السابقة مع الردود عليها:

١ ـ نشرت مجلة (الفيصل) في أحد أعدادها لسنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م مقالاً مليئاً بالمعلومات التي لا نرى إلا أنها من نسج خيال الكاتب، وذلك برغم سرده لقائمة مراجع لم يرجع إليها على ما يبدو! وهذه أمثلة على ما كتب[1]:

يقول في ص٥٢: «وأول إشارة تقول إن بحاراً عربياً أندلسياً اسمه خشخاش البحري قام بسفينته من لشبونة إلى الغرب من بحر الظلمات سنة ٨٥٠م. وإنه اكتشف في هذا

---

(١) الفنجري، أحمد شوقي، (المسلمون واكتشاف أمريكا وطريق الهند)، مجلة (الفيصل)، العدد ١٠٢، السنة التاسعة، ذو الحجة ١٤٠٥هـ، سبتمبر ١٩٨٥م، الرياض، ص ٥١ـ٥٤، وقد كرر أقواله هذه في كتابه (العلوم الإسلامية) ـ نشر مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٩٨٥.

البحر جزيرة مأهولة بالسكان. وإنه أحضر معه الهدايا إلى حاكم الأندلس عبد الرحمن الثاني. وقد كافأه الحاكم بتعيينه أميراً للبحرية الإسلامية، وإن هذا الرجل استشهد في معركة بحرية مع قرصان الفايكنج».

والصواب أن معلوماتنا عن خشخاش لا تتعدى نص المسعودي الذي سبق ذكره في الجزء الأول من هذا البحث، وأنه من قرطبة وليس من لشبونة. ولا نعرف له صلة بخشخاش البحري الذي ذكرت المصادر كونه قائد الأسطول واستشهاده في معركة مع الفايكنج، ولم تحدد المصادر رحلته في الأطلسي، ولم يشر الكاتب إلى مصدره حول هذه المعلومات!.

ويقول في ص٥٣: «من عجائب الصدف أن تكون أول خرائط عرفتها الدنيا لأميركا إسلامية، وليست إسبانية أو برتغالية. فالخريطة الأولى اكتشفت سنة ١٩٥٢م في مكتبة (الإسكوريال) بمدريد، وهي من صنع الجغرافي الإسلامي (ابن الزيات) المتوفى سنة ١١٩٨م، وفيها رسم لمنطقة بحر

الظلمات (أي المحيط الأطلسي)، ويشمل رسم الجزر المأهولة، وهي أميركا. وقد اكتشف الخريطة وحققها الأستاذ خوان فرنيط الأستاذ بجامعة برشلونة».

وقد نسب قوله هذا إلى كتاب «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» لأنور عبد العليم. ولكن هذا الكتاب لا يحتوي على أي ذكر لخريطة ابن الزيات هذه، بل وليس في معلوماته أي شيء منقول عن خوان ڤرنيت[1]!.

والصواب أن بالإسكوريال كتاباً بعنوان «المد والجزر» لمؤلف مجهول، وقد نسب ميخائيل الغزيري - أول مفهرس لكتب الإسكوريال - الكتاب لابن الزيات الإشبيلي، وفي الكتاب خريطة للعالم. وأنقل هنا حرفياً ما قاله فرنيت عن تلك الخريطة:

«وأهم من ذلك خريطة العالم المحفوظة في

---

(١) عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة (عالم المعرفة)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

الإسكـوريـال (مخطـوط ١٦٣٦). وهـي الآن مجهـولـة المؤلف، وإن كان غزيري نسبها إلى ابن الزيات، ومهما يكن من شيء، فالخريطة ترجع إلى ما قبل عام ١١٩٨م، وتصور ما كان يعرفه العرب في ذلك الحين عن المحيط الأطلسي. وهي مبسطة جداً، وتمتاز بأنها تصور لأول مرة خليج غينيا في ساحله الشمالي، أما الساحل الجنوبي فهو خيالي، يرجع بلا شك إلى تحريفات الأساطير القديمة»[١].

فنرى من هذا النص أن الذي اكتشف الخريطة ليس ڤرنيت، وإنما اطلع عليها (ميخائيل الغزيري) الذي نشر فهرس الإسكوريال القديم بين عامي ١٧٦٠ـ١٧٧٠م[٢]، ثم اطلع عليها مؤلف الفهرست الجديد (ليفي بروفنسال) الذي صدر عمله سنة ١٩٢٨م[٣]، ونلاحظ كذلك أنه لا توجد أية

---

(١) ڤرنيت، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط، ص ٨٥.

(٢) عواد، كوركيس، فهارس المخطوطات العربية في العالم (الكويت: معهد المخطوطات العربية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ١/ ١٣٤.

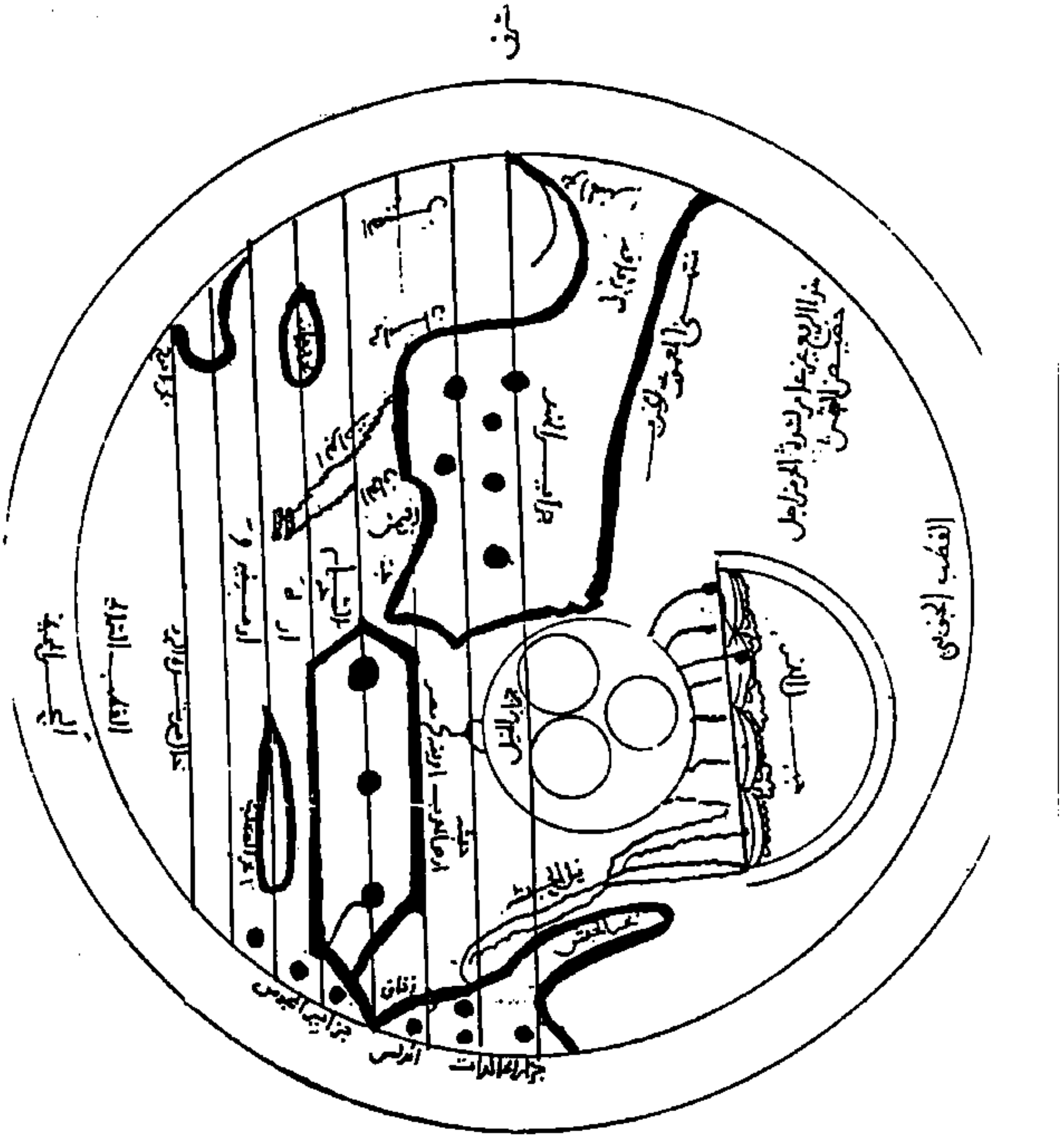
(٣) LEVI-OROVENCAL, E. Les Manuscrits Arabes de l'Escurial (tome III), (publ. de) L'Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes, Paris 1928, pp. 176-177.

جزر أو أراض تدل على أمريكا في الخريطة «لمبسطة جداً» حسب وصف ڤرنيت، والتاريخ الذي بينه ڤرنيت (١١٩٨م) ليس تاريخ وفاة ابن الزيات.

ويقول كاتبنا كذلك (ص٥٣) عن خريطة البحّار بيري ريس: «وهناك تفسير آخر لهذه الخريطة: أن الريس قد نقلها عن أبو عبد الله (هكذا بالواو مع أن «أبي» مجرورة بحرف الجر) الذي كان آخر حكام العرب في الأندلس. وعندما هزمته إيزابلا أبقته في خدمتها، ثم أمرته بقيادة حملة بحرية إلى أميركا لاعتقال كولمبس وإرجاعه إلى إسبانيا مقيداً بالسلاسل. وبذلك يكون أبو عبد الله العربي أول من وصل إلى أمريكا بعد كولمبس مباشرة. ولا بد أنه عاد من هناك بخرائطه الخاصة».

وهذا القول فيه خلط عجيب واستهانة بمعلومات جميع قراء المجلة! فأبو عبد الله نفي إلى جبال البشرات، ثم نفى نفسه إلى المغرب حيث توفي هناك. ومعاملة النصارى لمسلمي الأندلس تنفي أن تثق ملكتهم بأي مسلم ـ كما مرّ بنا في الجزء السادس من هذا البحث ـ. وكولمبس لم تُرْسَلْ أية حملة لإعادته مكبلاً بالسلاسل، بل قام بأربع رحلات عاد

منها مكرماً مبجلاً في بلده، وصنع الخرائط ليس عملية يسيرة لكي يسـافر أبو عبد الله ويرجع بخرائطـه الخاصـة من حملة عسكرية سريعة محددة.



شكل (١): خارطة العالم المرسومة بشكل بدائي في مخطوطة بالإسكوريال [نقلاً عن المخطوطة نفسها، وهي المذكورة في الفصل الثامن من البحث].

أما بيري ريس فقد أوضح في كتابه «كتاب بحرية» الخرائط التي استعان بها لرسم خريطته الدقيقة الباهرة. فهو اعتمد على عشرين خريطة، بعضها خرائط للعالم كله (مابايمندي mappaemundi بتعبير الريس) والبعض الآخر خرائط لمناطق معينة. وبعضها برتغالية، وواحدة منها خارطة كولمبس، والأخرى عربية قديمة وحديثة. ولذلك تجد أن أسماء الأماكن الأمريكية التي على خارطته هي نفسها الأسماء التي أطلقها الإسبان والبرتغاليون على المناطق المكتشفة[١].

٢ ـ كثر بين الباحثين القول بأن ابن الوردي وصف جزر الهند الغربية بأمريكا[٢]، حيث ينقلون من كتابه «خريدة

---

(١) LUNDE, P. "Piri Reis and the Columbus Map", Aramco World, vol. 43 no. 3, May-June 1992, p.20.

(٢) جعفر ابن الوردي، وصف أمريكا قبل اكتشافها بمئة عام، وفيه ذكر محاضرة ألقيت بمجمع دمشق سنة ١٩٣١ م، وأخرى نشرت بالمغرب سنة ١٩٧٣ م، ومقالة قديمة بمجلة تركية، كلها تدور حول نفس الموضوع وتنسب لابن الوردي وصف أمريكا. ويتردد نفس الكلام عند كتاب وباحثين آخرين، ولا أرى ضرورة لإحصاء المقالات التي انتشر فيها هذا الخطأ الشائع.

العجائب وفريدة الغرائب» وصفاً لجزائر في البحر المحيط، هي: الخلدتان والعوس والسعالي وحسرات والأخوين الساحرين والعرر والمستشكين وقلهات والطيور والصاصيل ولاقة وثورية. ولكن هذه الأوصاف منقولة برمَّتها من الإدريسي! فلعل هذا الخطأ ناتج عن جغرافية الإدريسي التي لم تطبع كاملة إلا مؤخراً، بينما الإشارة إلى ابن الوردي كانت قديمة بين الكتاب العرب، وأقدم إشارة إليه وجدتها منذ سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م(١).

الجدير ذكره أن كتاب ابن الوردي من كُتُب العجائب والغرائب، ومحتوياته إما معلومات مليئة بالخرافات والأوهام، أو أحاديث لأشراط القيامة وفتن آخر الزمان، بحيث لا يمكن اعتباره كتاباً جغرافياً يعتمد عليه(٢).

٣ ـ للباحث اللغوي المشهور الأب أنستاس الكرملي محاضرة ألقاها في بغداد في الشهر الأخير من عام ١٩٤٤م،

---

(١) محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار: ١/ ٨٥.
(٢) ابن الوردي، عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (القاهرة: دار البابي الحلبي، ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م).

ونشرت في مجلة المقتطف بعد شهرين، جعل عنوانها «عرف العرب أميركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب». وهي عبارة عن خطبة حماسية اندفع فيها بكل العبارات والألفاظ المنمقة ليمجد عرب الجاهلية الذين وصلوا حسب ظنه إلى جزر بجنوب غرب بريطانيا تسمى جزر القصدير، قبل المسيح بكثير، وذلك لبراعتهم في البحرية والهندسة وشجاعتهم الخارقة. وذلك قبل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ثم اليونان والرومان، وهذا كله نقلاً عن (هيرودوتس) المؤرخ اليوناني القديم.

ثم ذكر أن عرب الجاهلية هؤلاء عرفوا تيار الخليج Gulf stream، وبالتالي كانوا دائمي التردد على بلاد المكسيك، ودليله على ذلك تسمية الإفرنج للتمساح Alligator، وهي من كلمة (القاطور) أي القاتل. ومن أسمائه كذلك Caiman وأصلها (قرمان) أي مفترس، وقلب الراء ياء كانت إحدى لغات العرب.

ثم ذكر أن الأيرلنديين لما رأوا العرب يسافرون من ديارهم إلى المكسيك جيئة وذهاباً على متن تيار الخليج

عرفوا منهم أن في الطرف الغربي للمحيط بلاداً لم تصلها دعوة المسيح، فقام راهب منهم يدعى برندان برحلة وصفها الأب الكرملي وحدد تاريخها بأنها تمَّت بين عامي ٥٤٥ ـ ٥٥٢م[١].

فنرى من كلامه أنه بلغ به الحماس إلى أن اعتبر العرب مخلوقات جبارة، يذهبون من جزيرتهم إلى جزر بريطانيا وأيرلندا، ثم يركبون المحيط جيئة وذهاباً إلى المكسيك، وذلك قبل الفينيقيين! وغيرهم من أمم لا تحاول شيئاً مما فعلوه إلا حوالي عام ٥٥٠م، أي بعد آلاف الأعوام! ولا ندري هل كان الأب الكرملي يعرف التاريخ المحدد لعبارة (قبل الفينيقيين) (أي حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد)؟! وهل كان يستطيع إثبات أن اللغة العربية كانت مثلها اليوم منذ ذلك العهد السحيق؟!.

وقد ردَّ العقاد على هذه النظريات بقوله: «وقد كنا نود أن يستند القول بوصول العرب إلى العالم الجديد على بينة

---

(١) الكرملي، الأب أنستاس، «عرف العرب أميركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب»، مجلة «المقتطف»، العدد ١٠٦، فبراير ١٩٤٥م، ص ١٥٥ ـ ١٦٠.

أقوى من هذه البينة؛ لأن الواقع أن أصل تسمية التمساح بهذا الاسم الإسباني معروف، إذ هو مأخوذ من (el lagarto) الإسبانية المصحفة من (lacerata) اللاتينية بمعنى فصيلة الضب والعضاية؛ وإلى اللاتينية ترجع كلمة (lizard) الإنجليزية التي يسمى بها ذلك الحيوان، وكلتاهما قريب من قريب».

ثم يقول العقاد عن قصة برندان: «فقصة برندان هذه من الأقاصيص التي يرتاب فيها الثقات، ولا يجدون لها أصلاً مكتوباً قبل القرن الحادي عشر للمسيح، وهي التي يصح أن يقال: إنها مقتبسة من المصادر العربية؛ لأنها تحكي لنا حكاية الحوت الكبير الذي نزل عليه المسافرون، وظنوه جزيرة راسية، فتحرك بهم، وأوشك أن يغرقهم. وليس في القصة وصف للقارة الجديدة، بل وصفها كله خيال عن نعيم الأبرار الموعود في أرض الصالحين والقديسين»[1].

٤ ـ ذكر أحد الباحثين أن الرحالة ابن فاطمة ـ الذي سبق ذكره في «ثالثاً» من هذا البحث ـ أحد الذين حاولوا اكتشاف

---

(١) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٥١ ـ ٥٢.

المحيط. وذلك بقوله: «نشير إلى المحاولة التي قام بها ابن فاطمة في اكتشاف المحيط حسبما يرويه ابن سعيد المغربي في كتاب الجغرافيا الذي يتحدث عن ركوب البحّار المغربي البحر المحيط، فانخرم بـه المركب، فـوقع إلى ضبـاب وأعاصير. وضل البحريون ولم يعلموا حيث هم، حتى تركوا المركب الكبير، وأخذوا زاداً في القارب الصغير»[1].

ولكن هذا الكلام يختلف عن عبـارة ابن سـعيد المغربي، فننقل عبارة ابن سعيد بنصها، مع تفسير الكلمات بين قوسين: «ثم يصعد عن ذلك جون التن (أي خليج سمك التونة) من الإقليم الثاني ثلاث درجات، ووسـعه أقل من درجتين. ويقال له الجون الأخضر، لأن فيه أقاصير (أي مياه ضحلة) وحشيشاً أخضر كثيراً. وفيه سرب التن».

ثم يقول بعد ذلك: «وذكر ابن فاطمة أنه ركب البحر المحيط مـرة في نول لمطـة (مدينـة على نهر يصب فـي الأطلسـي بالصحراء المغربية)، فأخرم به المركب، فوقع في ضباب وأقاصير. وضل البحريون، ولم يعلموا حيث هم، حتى تـركـوا المـركـب الكبيـر، وأخـذوا زاداً فـي القـارب

(١) التازي، حول المغرب واكتشاف أمريكا، مجلة الفيصل، ص ٦٠ و٦٢.

الصغير، وصاروا يجرونه على الحشيش، وطوراً بالمجاديف، إلى أن انتهوا بعد مدة إلى قاع هذا الجون. وعاينوا من التن فيه ومن كثرته ما تعجبوا منه، وكذلك من الطيور البيض. ولم ينتهوا إلى البر إلا وكاد الزاد يفرغ»[1].

فنرى من نص ابن سعيد ـ بعد تفسير الكلمات ـ أن رحلة ابن فاطمة بدأت من نهر تقع عليه مدينة نول لمطة، واشتبك المركب الكبير فيها بمياه ضحلة، وانتهت في خليج التونة على ضفاف الأطلسي، فلا نرى في النص رحلة داخل أعماق المحيط.

واعتمد المصدر نفسه على نص آخر لابن فاطمة، ليجزم بأنه سافر في أعماق المحيط، والنص هو: «قال ابن فاطمة: وجزائر السعادة فيما بين الجزائر الخالدات والبر، مبددة في الإقليم الأول والثاني والثالث. وهي أربع وعشرون جزيرة. والحديث عنها كالخرافات. والبحر المحيط يتدرج قليلاً قليلاً، لارتفاع هذا الجزء، إلى أن يكون مصب النيل الذي يمر على غانا (قصد نهر السنغال الحالي)، ويكون حيث الطول عشر درجات وعشرون دقيقة، والعرض

---

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ١١١.

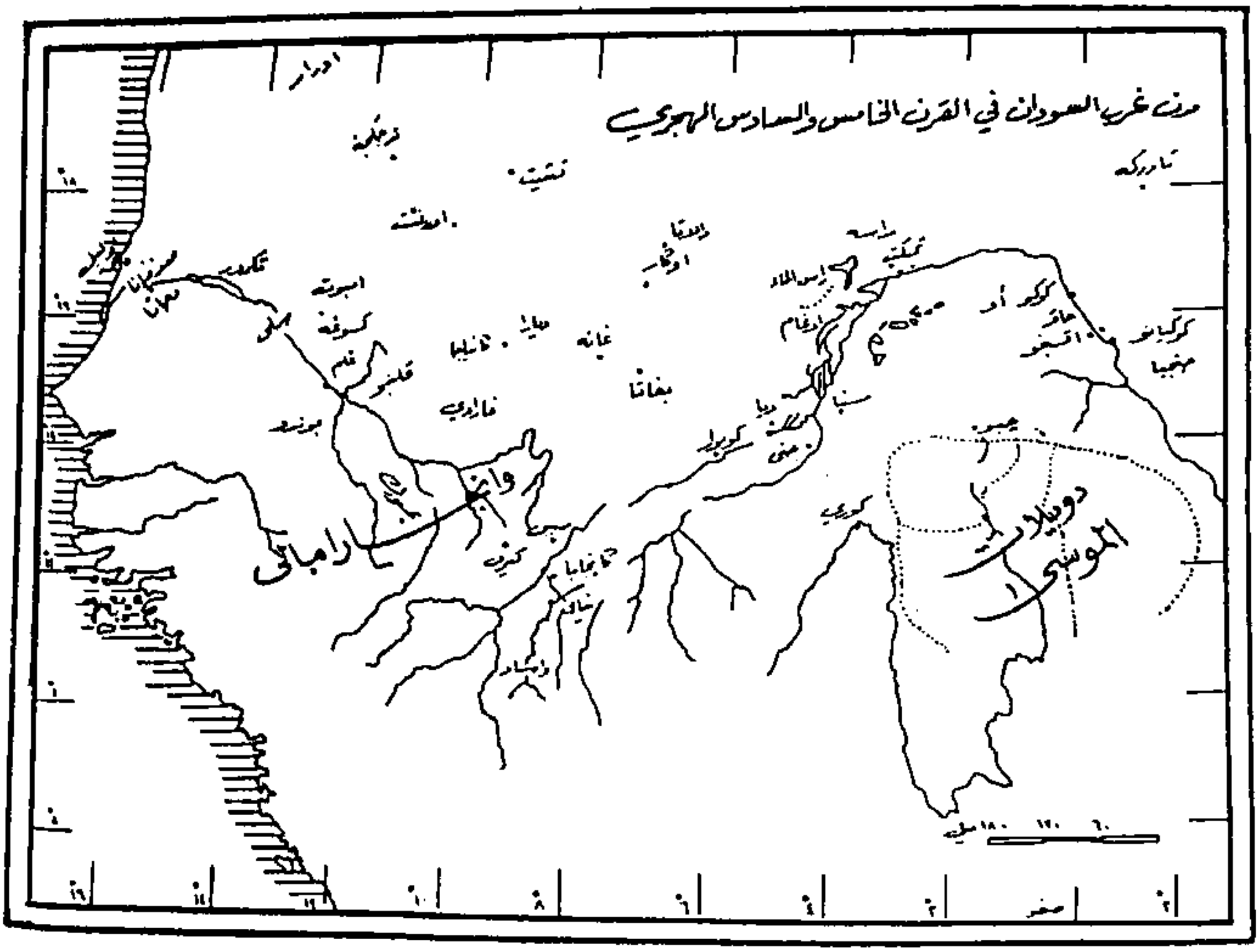
أربع عشـرة درجة. وأمام مصب النيل في البحر المحيط جزيـرة الملح. وطولهـا من الشـمال إلى الجنوب درجتان وقليل، ووسعها نصف درجة، وفي طرفها الجنوبـي على البحر مدينـة (أوليل، وهي سـراح كمدن الهنود، وفيها كثير مـن أنـواع القصـب والنبـات، وعيـش أهلهـا مـن السمـك والسلاحف، وتجارتهم بالملح، يصعدون به في المراكب إلى البلاد التي على شواطئ النيل. قالـوا: وليـس في بلاد السـودان ملاحة غيرها، وإلى جانب هذه الجزيـرة جزيرة العنبر، وبينهما مجاز مقداره نصف درجة، وبينهما وبين البر أقل من ذلك...» إلى آخر النص[1].

ومن هذا النص الأخيـر نرى أن الجزيـرتين اللتيـن ذكرهما ابن فاطمة: جزيرة الملح وجزيرة العنبر، هما في المياه الإقليمية للسنغال الحالية وذلك بعدة أدلة: فمدينة أوليل حدد موقعهـا الباحثـون، ونرى ذلـك المـوقع على الخارطة المرفقة في الصفحة التالية من هذا البحث. ثم لاحظ قوله بأن جزيرة العنبر المجاورة لجزيرة الملح بينها وبين البر أقل من نصف درجة (أي أقل من ٥٥ كيلو متراً).

---

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ٩٠.

وبالتالي فإن الجزيرتين ليستا في أعماق الأطلسي، وليستا من جزر السعادات أو الخالدات. وابن فاطمة يعد من المكتشفين الكبار، ولكن حول القارة الأفريقية وداخلها ـ كما مرّ بنا في «ثالثاً» من هذا البحث ـ.



شكل (٢) مدن بلاد غرب أفريقية في القرنين الخامس والسادس الهجريين ـ أي في الفترة التي عاش فيها الرحالة ابن فاطمة. (نقلاً عن دندش، عصمت، دور المرابطين في نشر الإسلام بغرب أفريقية).

الاستنتاجات والتوصيات

لنفرض أن شخصاً اسمه أحمد، خرج من مدينة دمشق قبل مئتي عام، وانقطع خبره عن أهله، ثم جاء باحث مهتم بالوثائق بعد قرنين في القاهرة، ووجد بيتاً تعود ملكيته لأحمد الدمشقي المذكور، بداخله مذكرات بخط يده. فماذا يعني ذلك؟ طبعاً الاستنتاج البسيط هو: سفر أحمد من دمشق إلى القاهرة. وتبقى معرفة المسار الذي اتخذه: هل هو بالبر مباشرة من الشام إلى مصر، أم ذهب إلى الحرمين ثم سافر إلى مصر؟، أم ذهب إلى بيروت ثم ركب البحر إلى الإسكندرية؟

هذه الحادثة التخيلية تشبه ما مرّ بنا في متن البحث: سافر ربابنة مغامرون روادٌ من الأندلس وشمال غرب أفريقية. بعضهم سافر قبل كولمبس، وبعضهم بعده مثل

الموريسكيين. ثم ظهرت آثارهم على هيئة نقوش، وكلمات عربية في لغات هنود أمريكا، ومجتمعات عربية وإسلامية منعزلة يعود زمن تكوينها إلى أزمنة قديمة.

وإذا عدنا إلى قراءة الجزءين الأول والثالث من هذا البحث فإننا نستنتج بسهولة أن الرحلات التي وصلت إلينا أخبارها لا يمكن اعتبارها الوحيدة التي تمت؛ فالمؤرخون: كان يتركز اهتمامهم على الشخصيات العامة والمشهورة، وليس على مغامرين أفراد من الطبقات الشعبية؛ والرحلات التي تمت إلى جزر الأطلسي والأمريكتين إما لم يعد أفرادها إلى أرض الوطن، أو عادوا بعد رحلة واحدة فريدة لم يكرروها، فلم يهتم أحد بتسجيل ملاحظات دقيقة مفصلة عن رحلات متعبة خطيرة كهذه. ولم يكونوا هم من الرحالين أو الجغرافيين المثقفين الذين دوَّنوا رحلاتهم في كتب باقية للأجيال.

ولهذا نستنتج أن المعلومات التي وصلت إلينا قليلة بالنسبة لما تم فعلاً من رحلات، سواء عن طريق الأطلسي أو الهادي.

وكما يقال بأن جزر المحيط الأطلسي ـ أي الكناري والأزور وماديرا والرأس الأخضر ـ كانت معروفة لدى الجغرافيين المسلمين، بينما كتب الغرب تقول بأنها «اكتشفت» أي عرفها الأوروبيون في السنوات القريبة من اكتشاف الأمريكتين، يمكن قول نفس الشيء عن العالم الجديد: حيث كان معروفاً لدى الملاحين الذين سافروا إليه من الشرق الأقصى، ومعروفاً لدى بعض العلماء الذين صرحوا بوجود أراض خلف المحيط الأطلسي ـ كما مرّ بنا في الفقرة الثانية من هذا البحث ـ وكان الرواد المسلمون الذين اقتحموا المحيط الأطلسي على يقين من وجود جزر وبلدان على شاطئه الغربي.

إلا أن وجود العالم الجديد ظل مجهولاً لدى غالبية الناس في العالم القديم، لضعف وسائل الإعلام في ذلك الزمن، ولقلة عدد الرحلات التي تمت بنجاح وعاد أفرادها إلى أرض الوطن، ولكون هؤلاء الأفراد من مغموري الناس كما أسلفنا. فلما تم اكتشاف كولمبس، وتتابعت الرحلات المتلاحقة المنظمة المدعومة من حكومتي إسبانيا

والبرتغال، وتلاها الاستعمار الكبير للقارتين، كان ذلك العمل أكبر بكثير من أن يبقى مجهولاً لدى العالم القديم.

وعلى العموم، فإن الرحلات المعروفة لدينا ـ مثل رحلة خشخاش ورحلة المغررين ـ نصدق ونجزم بإمكانية وقوعها كما قال العقاد، ولكن تفاصيل أخبارها قابلة للنقاش والأخذ والرد. ويجب على الباحث في هذا المجال ألا يذهب بعيداً في حسن الظن فيفترض افتراضات لا تثبت صحتها، كالافتراضات التي أوردنا أمثلة منها في الفقرة السابقة من هذا البحث.

وهذه الدراسة كما قلنا في البداية تعرض المعلومات والآراء التي سبقت، ولكن البحث في هذا المجال لا يزال في بدايته، وقد عبّر علماء الغرب أكثر من مرة عن رأيهم بأن باحثي العرب هم الذين تقع عليهم تبعة استكمال البحوث في هذا المجال. فعندما ألقى عالم النبات (لزلي) بحثه في مؤتمر جمعية الاستشراق الأمريكية سنة ١٩٦١م ـ كما مرَّ بنا في هذا البحث ـ صرح رجارد رودلف رئيس المؤتمر قائلاً: «والآن

ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم، وليبدأوا من هذه المنطقة»[(١)] .

وباري فل عالم الآثار المختص بتاريخ أمريكا لِمَا قَبْل كولمبس يصرّح في كتابه قائلاً : «إني لأتوق إلى اليوم الذي يتسلق فيه زملائي العرب جبال سييرا لزيارة الوهاد المعلقة، حيث اسم النبي ﷺ يوجد منحوتاً على صخرة أمريكية، على أيدي بحارة اهتدوا إلى السلامة هناك منذ زمن بعيد»[(٢)] .

فالمسؤولية إذن تقع على علماء التاريخ والجغرافيا والآثار والأنثروبولوجيا وكل من يستطيع أن يدلي بدلوه في هذا المجال الجديد الذي لم ينل حظاً من الدراسة الكافية . صحيح أن بعض الأساتذة العرب من شمال أفريقية بدأوا منذ سنوات بالبحث في هذا الموضوع، ومن ضمنهم أساتذة ذكرت أسماؤهم في كتاب باري فل، وآخرين ذكروا في كتاب التميمي، كما ذكر غيرهم في كتاب كاردياك (وهذه الكتب مذكورة بمراجع هذا البحث)، إلا أن أسئلة عديدة

---

(١) الشهابي، الجغرافيون العرب، ص ٣٦ .

(٢) باري فل، اكتشاف أمريكا قبل كولمبس، ص ٤١٦ .

لا تزال تنتظر الإجابة، ومنها:

١ ـ ما أصل المجتمعات العربية والإسلامية القديمة التكوين بالمكسيك والبرازيل؟ هل وصلوا إلى هناك قبل كولمبس أم بعده؟ فالتاريخ يذكر لنا أن العديد من الأفارقة الذين اختطفهم النخاسون وباعوهم عبيداً بالأمريكتين تمردوا على حياة العبودية، وكوّنوا مجتمعات منعزلة في أماكن حصينة بالقارتين[١]. وهل تم أي اتصال بين أولئك المسلمين والجمعيات الإسلامية للمهاجرين الجدد أو المنظمات الإسلامية الدولية؟.

٢ ـ ما الكتب والبحوث التي تم تأليفها في هذا الشأن باللغات الغربية مثل الإنكليزية والفرنسية والإسبانية وفي كل الدول كأوروبا والمكسيك والبرازيل وأمريكا؟ وما الذي تُرجم منها؟.

٣ـ إلى أي فترة تعود الآثار العربية في القارتين؟.

---

(١) PALMER, collin, "The Cruelest Commerce", (about slave trade between Africa and the Americas), **National Geographic**, vol. 182 no. 3, Sept 1992, pp. 63-91,.89.

٤ ـ هل توجد آثار عربية وإسلامية في جزر الأطلسي والهادي؟ وإلى أي فترة تعود؟.

٥ ـ ما سرّ لبس العمامة عند بعض وجهاء الهنود بأمريكا الشمالية، مثل سكوايي Sequoyah (توفي عام ١٨٤٣م. وهو مخترع الكتابة للغة قومه شعب چيروكي Cherokee) وغيره من وجهاء شعب أپاچي Apache[١]؟.

ولهذا فإنني أدعو الباحثين العرب إلى العناية بهذا الموضوع، وأن يتم التنسيق فيما بينهم بإيجاد مركز بحث ينسق أعمالهم، ويضم مكتبة وقاعدة معلومات لكل ما كُتب في هذا المجال، ويتولى تعريب البحوث الأجنبية إلى العربية ونشرها في طبعات ميسرة. وهناك بعض المراكز في ليبيا وتونس يمكن اتخاذها نواة للمركز المذكور، فننطلق من أحد هذه المراكز، بدلاً من تكلّف إنشاء مركز جديد.

---

(١) FOREMAN, G.(Sequoyah), University of Oklahoma Press, 6th printing (1980) Roberts, D. (Geronimo), **National Geographic**, vol. 182 no. 4, Oct, 1992, pp. 46-71 (see p. 67).

SEQUOYAH



شكل (٣) : العبقري سكوايي (ينطق اسمه هكذا Sikwayi)، من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية. كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم الإنـكليزية في حياته. ولكنه اخترع كتابة خاصة بقومه شعب الجيروكي (Cherokee)، وذلك في عام ١٨٢١م. الملاحظ أنه مثل العديدين من زعماء هنود أمريكا الشمالية كان دائماً يلبس العمامة. والعمامة كما تقول دوائر المعارف لبس إسلامي، فمن أين أتت لهؤلاء القوم؟!.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت: ٥٦٠هـ):

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م. (مصورة من طبعة إيطاليا عام ١٩٧٩م).

ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (ت: ٨٠٨هـ):

مقدمة ابن خلدون، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧م.

الرامهرمزي، بزرگ بن شهريار:

عجائب الهند، (لندن: رياض الريس، ١٩٨٨م).

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، (ت: ٦٨٥هـ):
كتاب الجغرافيا؛ تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٠م).

شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب، (ت: ٧٢٧هـ):
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر؛ تحقيق فران، مهران، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. (مصورة من طبعة أوروبا).

العمري، ابن فضل الله، (ت: ٧٤٨هـ):
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار؛ تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

ابن ماجد، أحمد:
حاوية الاختصار في أصول علم البحار؛ تحقيق إبراهيم الخوري، مجلة المعهد الفرنسي، مج ٢٤، (١٩٧٢م).

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت: ٣٤٦هـ):

مروج الذهب ومعادن الجوهر؛ نشر يوسف داغر، الطبعة الثانية، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣م.

ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر، (ت: ٧٤٩هـ):

خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة: دار البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

* * *

ثانياً: المراجع العربية

أرسلان، شكيب:

ـ حاضر العالم الإسلامي، الطبعة الرابعة، بيروت: دار لفكر، ١٩٧٣م.

ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، القاهرة: دار البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

التازي، عبد الهادي:

حول المغرب واكتشاف أمريكا، مجلة الفيصل، ع١٥٦، س١٣ (جمادى الآخرة ١٤١٠هـ/ يناير ١٩٩٠م).

التميمي، عبد الجليل:

الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، ١٩٨٩م.

التونسي، محمد بيرم:

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القاهرة: المطبعة الإعلامية، (١٣٠٢_١٣٠٣هـ).

جعفر، إحسان:

ابن الوردي وصف أمريكا قبل اكتشافها بمئة عام، مجلة الفيصل، ع١٧٩، س١٥ (جمادى الأولى ١٤١٢هـ/ نوفمبر ١٩٩١م).

الدغيم، محمود السيد:

أول رحلة شرقية إلى أميركا قام بها خوري كلداني، جريدة الحياة، ع١٠٨٢٦ (٤/ ٤/ ١٤١٣هـ ـ ٣٠/ ٩/ ١٩٩٢م).

زكار، سهيل:

المدفعية عند العرب، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣م.

الشهابي، مصطفى:

الجغرافيون العرب، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م.

عبد العليم، أنور:

الملاحة وعلوم البحار عند العرب، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

العقاد، عباس محمود:

أثر العرب في الحضارة الأوروبية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٦م.

عواد، كوركيس:

فهارس المخطوطات العربية في العالم، الكويت: معهد المخطوطات العربية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

فرنيت، خوان:

هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية، صحيفة معهد الدراسات العربية المصرية، مج ١، ع١، (١٩٥٣م).

فل، باري:

اكتشاف أمريكا قبل كولمبس؛ ترجمة العكبازي،

والمحيشي، ليبيا، طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبيين منذ الغزو الإيطالي، ١٩٨٨م.

الفنجري، أحمد شوقي:

المسلمون واكتشاف أمريكا وطريق الهند، مجلة الفيصل، ع١٠٢، س٩ (ذو الحجة ١٤٠٥هـ/ سبتمبر ١٩٨٥م).

كارdياك، لوي:

الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجادلة الكلامية ١٤٩٢ ـ ١٦٤٠م؛ تعريب عبد الجليل التميمي، تونس: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٣م.

كراتشكوفسكي، إغناطيوس:

تاريخ الأدب الجغرافي العربي؛ تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م.

الكرملي، أنستاس:

عرف العرب أميركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب، مجلة

المقتطف، ع١٠٦ (فبراير ١٩٤٥م).
مال الله، علي محسن:
رحلة المغرورين، مجلة المورد، مج ٧، ع١ (١٩٧٨م).
مؤنس، حسين:
تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٦م.
هازي، جورج:
بحث عن رحلة مسليات الغريب للبغدادي: الملتقى الخامس للدراسات العثمانية بتونس، نشر ملخصه في صحيفة (المسلمون)، ع٦٦ (٢١/ ٨/ ١٤٠٨هـ).
هورتز، أنطونيو وبرنارد نبثنت:
تاريخ مسلمي الأندلس؛ تعريب عبد العال صالح طه؛ مراجعة محمد محيي الدين الأصفر، الدوحة: دار الإشراق، ١٩٨٨م.

* * *

ثالثاً : المصادر الأجنبية

Beeton, A.M:

"Great Lakes", EncyclopaediaBratannica(EB). vol,8. Also see Macropaedia of the E B entries: Cape Verde, Azores, 1981.

Davies, W.K.D.:

"Geography", EB, 1981, vol.7.

Fell, Barry:

Saga America,, Publ: Times Books. New York, 1980.

Foreman, G.:

"Sequoyah", University of Oklahoma Press, 6th Printing (1980).

Levi-Provencal, E.:

Les Manuscrits Arabes de l Escurial (tome III), (publ. de) l Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes, Paris 1928.

Lunde, P.:

-" Voyages of the Mind", ARAMCO WORLD, vol. 43, no. 3. May - June 1992.

-" The New World Through Arab Eyes", ARAMCO WORLD, vol. 43 no. 3, May - June 1992.

-"Pillars of Hercules, Sea of Darkness", ARAMCO WORLD, Vol. 43 No. 3 (May - June 1992). P. 13.

-"Piri Reis and the Columbus Map", ARAMCO WORLD, vol. 43 no.3, May - June 1992.

Lyon, E.:

"Search for Columbus", **National Geographic**, vol. 181 no. 1, January 1992.

Morton, W.L.:

"History of Canada", Encyclopaedia Britannica (EB). 1981.

Palmer, Collin,:

"The Cruelest Commerce", (about slave trade between

Africa and the Americas), **National Geographic**, vol. 182 no. 3, Sept 1992.

Roberts, D.:

"Geronimo", **National Geographic**, vol. 182 no. 4, Oct, 1992.

Tibbetts, G. R.:

"Arab Navigation in the Indian Ocean Before the Coming of the Portuguese, being a translation" of: "Kitab al-Fawaid" of Ahmed b. Majid, (publ. by) the Royal Asilatic Society, London 1981.

Toten, Norman

"Carthaginan Coins found in Arkansas and Alabama", Occasional Papers of the Epigraphic Society (USA 1976) Vol. 4.

Vincent-Barwood, A.:

"Columbus: What If?", ARAMCO WORLD, vol. 43, no. 1, January-Feb. 1922.

Yanez-Barnuev, Luis:

Preface of the book "AL - ANDALUS" by J. Vernet and R. Masats, (publ. by) Comision Quinto Centenario\ Lunwerg, Madrid, 1992.

* * *

الفهـــرس

* * *